الفصل الثامن عشر

الأجناس الثلاثة التى تسكن أقاليم الولايات المتحدة : أحوالها الحاضرة وما يحتمل أن تكون عليه فى المستقبل

هأنذا أنجزت المهمة الأساسية التى فرضتها على نفسى ، فقد أوضحت ، ما وسعه جهدى ، قوانين الديمقراطية الأمريكية ، وعاداتها . وكان ينبغى لى أن أقف عند هذا الحد لولا خشيتى أن يشعر القارىء أنى لم أحقق له ما كان ينتظره من هذا الكتاب .

ليست الديمقراطية المطلقة كل ما فى أمريكا ؛ فمن الميسور أن ننظر إلى سكان الدنيا الجديدة من أكثر من وجهة نظر واحدة . وكثيراً ما ساقنى الموضوع ، وأنا أضع هذا الكتاب ، إلى التحدث عن الهنود والزنوج ، إلا أن الوقت لم يتسع لى مطلقاً لأن أقف وأشرح مركز هذين الجنسين بين الشعب الديمقراطى الذى عنيت بوصف أحواله . لقد بينت القوانين التى أدت إلى تكوين الاتحاد الأمريكى الإنجليزى ، ولكنى لم أتمكن إلا من إلقاء نظرة عجلى قاصرة على الأخطار التى تهدد هذا الاتحاد ، كما لم أستطع أن أسهب فى الكلام عن الفرص التى تتيح له البقاء ، من غير نظر إلى قوانينه وعاداته الأخلاقية . فعندما تحدثت عن الجمهوريات المتحدة ، لم أجازف بالإدلاء بأى رأى فى دوام أشكال الحكم الجمهورى فى الدنيا الجديدة ، وعندما أكثرت من الإيماء إلى النشاط التجارى القائم فى الاتحاد الأمريكى لم أعالج مع ذلك مستقبل الأمريكيين فى التجارة .

وهذه كلها أمور تمس موضوعى الأساسى من قريب ، وإن لم تكن داخلة فيه فهى أمريكية وإن لم تكن ديمقراطية ، ووصف الديمقراطية هدفى الأول . فكان على إذن أن أؤجل دراسة هذه الموضوعات ، فأجلتها فعلا . وهأنذا أعود وأتناولها من جديد وأختتم بها هذا الكتاب .

تمتد الأقاليم التى يشملها الاتحاد الأمريكى الآن ، أو التى يطالب بها ، من شواطىء المحيط الأطلسى إلى شواطىء المحيط الهادى ؛ وحدوده من الشرق والغرب حدود القارة نفسها . أما من الجنوب فتمتد حتى تقارب المدار[1] ، وأما شمالاً فتبلغ الأقاليم المتجمدة الشمالية .

هذا وليس الناس المنتشرون فى هذه الأقاليم المترامية الأطراف فروعاً عدة تنتمى كلها إلى أصل واحد ، كما هى الحال فى أوربا . فحسبنا نظرة واحدة ، فندرك لأول وهلة أن ثمة

---

(١) ذلك لأن فلوريدا لم تضم إلى الاتحاد الأمريكى إلا فى سنة ١٨١٩ ، بمهارة جاكسون ولم تصبح ولاية أمريكية إلا فى سنة ١٨٤٥ . أما تكساس فقد كانت تابعة للمكسيك ثم انفصلت عنها وظلت دويلة مستقلة من سنة ١٨٣٦ إلى سنة ١٨٤٥ ثم ضمت إلى الولايات المتحدة .

أجناساً ثلاثة فى هذه البلاد ، ميزتها الطبيعة بعضها عن بعض ، وأكاد أقول إنها أجناس متعادية ، كل جنس منها خصم للجنس الآخر . فقد أقام القانون وأقامت التربية والتعليم بينها حواجز مانعة ، فضلاً عن تباينها فى الأصل وفى السمات الظاهرة ، ولكن المصادفة وحدها هى التى جمعت هذه الأجناس كلها فى صعيد واحد من غير أن تدمجها بعضها فى بعض ، على الرغم من اختلاطها . فكل جنس منها يجرى نحو ما قدر له من مصير ، من غير نظر إلى ما قدر على الآخرين .

فأول جنس من هذه الأجناس البشرية المختلفة كل الاختلاف يسترعى الأنظار ، ويعد أسمى الأجناس كلها قاطبة من حيث الذكاء والقوة والاستمتاع بالحياة ، هو الجنس الأبيض أو الأوربى ، وإن شئت قلت جنس الإنسان بأسمى ما يدل عليه هذا الاسم من المعانى ، ثم يليه الزنوج فالهنود . وليس بين هذين الجنسين التعيسين شىء مشترك ، لا من حيث المولد ، ولا من حيث الملامح والقسمات واللغة والعادات . فهما لا يشبهان فى شىء غير حظهما المنكود ، فكلاهما يشغل مرتبة وضيعة فى البلاد التى يسكنها ، وكلاهما يعانى الأمرين من الاستبداد والظلم . فإن لم تكن المظالم التى يشكوان منها واحدة ، فكلها يرجع إلى مصادر واحدة من وضع البشر .

لو أنا اعتبرنا بما يحدث فى هذه الدنيا ، لوجب علينا فى أغلب الأحوال أن نقول بأن الأوربى يعد بالنسبة إلى بقية الجنس البشرى مثلما يعد الإنسان بالنسبة إلى الحيوانات الأدنى منه . فهو يسخره لقضاء أغراضه ، فإن لم يستطع إخضاعه قضى عليه بالهلاك . لقد حرم الظلم سلالات الزنوج كل ما يمتاز به بنو الإنسان تقريباً ، حتى لم يعد لدى الزنجى فى الولايات المتحدة ذكرى عن بلاده الأصلية ، ولم تعد اللغة التى كان يتخاطب بها أجداده تسمع حوله ، فقد هجر دين أجداده ، ونسى عاداتهم الأخلاقية ، وانفصل عن إفريقيا ، ولم ينل مع ذلك أى حق للمطالبة بما ينعم به الأوربى ، بل بقى فى وسط الطريق بين هذا وذاك . معزولاً بين جنسين من البشر : جنس باعه ، وآخر تنكر له . فلم يجد بقعة فى العالم كله يسميها وطنا غير صورة ناقصة لذلك المأوى الذى أتاحه له سيده .

وليس للزنجى أسرة ، ولا تعدو المرأة عنده أن تكون رفيقة مؤقتة للذاته . أما أطفاله فيعدون منذ يولدون على قدم المساواة مع أبيهم . وهل لى أن أقول إنها لنعمة من نعم الله ، أو علامة من علائم غضبه على خلقه ، أن يبدو الإنسان فى أحوال معينة جامد الشعور لا يحس بما هو غارق فيه من شقاء بالغ ، بل إنه قد يكتسب محبة منحرفة لدواعى شقائه وتعاسته ؟ فبعد أن ارتطم الزنجى فى هذه الوحدة من الشرور والخبائث ، أصبح لا يكاد يشعر بما فى مركزه من ضعة وهوان ، فقد ألقى به العنف فى الرق ، وأكسبته عادات العبودية أفكار الرقيق ورغباته . فتراه يعجب بظالميه أكثر مما يكرههم ، ويجد مسراته ومفاخره فى أن يحاكى أولئك الذين استبدوا به ، محاكاة ذليلة . لقد هبط تفكيره إلى الدركة التى انحطت إليها نفسه .

يدخل الزنجى ربقة الرق من يوم تتفتح عيناه على هذه الدنيا ، بل إنه ليشترى أحياناً وهو جنين فى بطن أمه ، فهو عبد حتى قبل أن يولد . ويبدأ ، قبل أن يرى الضوء ، محروماً من حاجياته ، ومتعه ، لا جدوى منه حتى لنفسه ، إذ هو يتعلم منذ يوجد فى هذا العالم أنه مملوك لشخص آخر ، يهمه أن يعنى به ، ويحافظ على حياته . فالزنجى يدرك أن العناية بمصالحه ليست من شأنه ، وإنما من شأن سواه . وصارت القدرة على التفكير فى نظره هبة من الله لا طائل تحتها . فكأنى به يستمتع فى رضى وهدوء بالميزات التى تخولها له ضعته وهوانه .

وإذا ما أعتق وصار حراً ، فإنه كثيراً ما يعد الاستقلال قيداً أثقل عليه من الرق . فبعد أن ظل حياته كلها ، يتعلم الخضوع لكل شىء ماعدا العقل ، صار عندما يكون العقل هاديه الوحيد ، يعجز كل العجز عن إدراك مطالبه . وعندما تتكاثر عليه الرغبات المستجدة العديدة ، وتلح عليه ، لم يجد لديه المعرفة ولا الهمة اللازمتين لمقاومتهما . فتصبح تلك الاحتياجات فى نظره «سادة» يجب أن يكافحها . ولكن أنّى له أن يكافح وهو لم يعرف فى حياته غير الخضوع والإذعان ؟ وهكذا نزل الزنجى فى الجملة إلى هوة عميقة من البؤس والذلة . فإن كان الرق قد جعله بهيماً جامد الحس ، فإن الحرية تقضى عليه وتهلكه .

هذا ، ولم يكن أثر الظلم فى الجنس الهندى بأقل منه فى الزنوج . أما نتائجه فمختلفة ، فقبل أن يصل الرجل الأبيض إلى الدنيا الجديدة ، كان سكان أمريكا الشمالية الأصليون يعيشون قانعين راضين فى غاباتهم ، صابرين على صروف الزمان وتقلباته فى حياة المتوحشين ، يمارسون ما فى تلك الحياة من فضائل ورذائل . وبعد أن شتت الأوربيون شمل القبائل الهندية وطردوها إلى المجاهل والفيافى ، قضوا عليهم بأن يعيشوا عيشة متنقلة لا استقرار فيها ، وهى عيشة كلها آلام ومتاعب تجل عن الوصف والتعبير .

فالشعوب المتوحشة لا يحكمها غير الرأى العام والعرف الغالب عليها . فبعد أن فقد هنود أمريكا الشمالية عاطفة حب بلادهم ، وبعد أن تشتت أسرهم ، وضعفت تقاليدهم ، وانفصمت عرى ذكرياتهم ، وبعد أن تغيرت كل عاداتهم وزادت حاجاتهم على كل حد - بعد ذلك زادهم استبداد الأوربيين بهم فوضى ، وأضعف حضارتهم عما كانت عليه من قبل ، فظلت حالة هذه القبائل المادية والأخلاقية تزداد سوءاً باستمرار ، حتى صاروا أكثر وحشية كلما ازداد بؤسهم وشقاؤهم . ومع ذلك لم يستطع الأوربيون أن يغيروا شيئاً من أخلاق الهنود . ومع أن الأوربيين هؤلاء كانوا يستطيعون إهلاكهم وإبادتهم . فإنهم لم يستطيعوا أبداً أن يخضعوهم ويمدنوهم .

كان من حظ الزنجى المقدور عليه أن يكون عند طرف العبودية ، على حين كان حظ الهندى يقع عند طرف الحرية الأقصى . ولم يكن تأثير الرق فى الأول بأسوأ من تأثير الاستقلال فى الثانى . لقد أضاع الزنجى كل حق له فى ملكيته الشخصية ، ولا يستطيع

حتى أن يتصرف فى وجوده ذاته من غير أن يرتكب نوعاً من السرقة . ولكن المتوحش يعد سيداً تعساً منذ استطاع أن يعمل ، فهو لا يكاد يعرف سلطة الوالدين ، ولم يثن إرادته قط لإرادة أى إنسان من بنى جلدته ، ولم يتعلم أبداً الفرق بين الطاعة الاختيارية وبين ذلة الخضوع . فهو لم يعرف حتى اسم القانون (فلفظة القانون ذاتها غير معروفة عنده) ومعنى الحرية فى نظره لا يعدو التخلص من كل قيد من قيود المجتمع . ولما كان يغتبط بهذا الاستقلال الوحشى ، ويؤثر أن يهلك على أن يضحى بأدنى جزء منه فليس للحضارة أى سلطان على مثل هذا الإنسان .

ويبذل الزنجى الكثير من الجهود غير المجدية لكى يزج بنفسه خلسة بين الناس الذين يأبون عليه أن يكون بينهم ، فتراه يأخذ بأساليب ظالميه المسيطرين عليه ، وبآرائهم ، ويأمل أن يصبح بمحاكاتهم جزءاً من مجتمعهم . وإذ كان يقال له منذ نعومة أظفاره أنه من جنس دون الجنس الأبيض ، صار يتقبل هذه القضية ، ويخجل كل الخجل من ضيعة نفسه ، فهو فى كل سمة من سماته يرى أثر الرق ، ولو استطاع لرضى أن يتخلص من كل شىء جعله ما هو عليه .

أما الهندى ، فعلى النقيض من ذلك غلب عليه الوهم حتى صار يزهى بنبل أصله المزعوم ، ويعيش ويموت وهو غارق فى أحلامه بنبالته وعظمته ، فكان أبعد ما يكون عن أن يرغب فى تكييف عاداته بعاداتنا . فهو يحب حياته الهمجية بوصفها السمة التى يتميز بها أبناء جنسه ، ويأبى كل دعوة إلى الأخذ بأساليب الحضارة ، لا عن كراهية لها ، بل خوفاً من أن يشبه الأوربيين . فليس لديه ما يقدمه حيال ما بلغناه فى الفنون من كمال ، غير موارد البرارى ؛ وليس له إزاء حيلنا الحربية غير شجاعته الجسمانية غير المدربة . فمادام كذلك ، ومادامت خططنا المدروسة حق الدرس لا يقابلها من ناحية الهندى سوى غرائز الحياة الوحشية التلقائية ، فلا غرو أن فشل الهندى فى هذا الصراع غير المتكافىء .

كان الزنجى الراغب فى الاختلاط بالأوربيين رغبة صادقة ، لا يستطيع أن ينجح فى ذلك إلى حد ما ، يحتقر كل الاحتقار أن يحاول القيام ببذل أى جهد فى هذا السبيل . فذل الأول قضى عليه بالعبودية ، وكبرياء الثانى أوردته موارد الهلاك .

أذكر أنى فى سفرة لى وسط الغابات التى مازالت تكسو ولاية ألاباما ، وصلنا ذات يوم إلى بيت خشبى يسكنه أحد الرواد . وإذ لم أكن أقصد أن أدخل بيت الأمريكى ، انتبذت مكاناً عند عين ماء ، ورقدت هنيهة لعلى أريح فيها نفسى . ولم تكن العين بعيدة عن مدخل الغابة ؛ فبين أنا فى ذلك المكان (وهو لا يبعد كثيراً عن إقليم الهنود الكريك) إذا بامرأة هندية تطلع علينا ، وخلفها أخرى زنجية ممسكة بيدها فتاة بيضاء لا تزيد سنها على الخامسة أو السادسة حسبتها ابنة ذاك الرائد الأمريكى ، وكانت الملابس التى ترتديها الهندية تبرز الترف الوحشى . فقد تدلى حلق من المعدن من منخريها وأذنيها ، وكان شعرها

المحلى بالخرز مرسلاً على كتفيها فى غير نظام . ولحظت أنها لم تتزوج بعد لأنها لاتزال ترتدى عقداً من المحار الذى تخلعه العذراء عن طوقها وتطرحه على سرير العرس . أما الزنجية فقد كانت ترتدى ملابس أوربية قذرة مهلهلة . فجاء الثلاثة وجلسن عند حافة العين ، وأخذت الهندية الطفلة الأوربية بين يديها ، وجعلت تغمرها بالعطف والقبلات كما تغمر الأم أطفالها ، على حين كانت الزنجية تعمل على استلفات أنظار الصغيرة بحيل شتى . وكانت الطفلة تبدى فى كل حركة من حركاتها ما يدل على شعورها بالتفوق والسيادة على نحو غريب يتناقض مع ضعف الطفولة ، فكأنها تتقبل رعاية رفيقتيها بشىء من التنازل . وكانت الزنجية تجلس القرفصاء على الأرض أمام سيدتها ترقب أقل رغبة تبديها فتلبيها . وظاهر أن مشاعرها كانت موزعة بين محبة أم للطفلة ، وبين خوف ذليل منها . على حين كانت الهندية تبدو على ما بها من رقة وعطف ، فى مظهر ينبىء عن حرية وعن كبرياء تكاد تكون متوحشة . فجعلت أقترب من تلك الجماعة وأتأمل هذا المشهد فى صمت ، ولكن يظهر أن فضولى لم يرق للمرأة الهندية ، فقد نهضت فجأة ودفعت الطفلة عنها بشىء من العنف ، ثم حدجتنى بنظرة غضبى ، وعادت إلى الغابة واختفت فى أعماقها .

وكثيراً ماصادفت فى المكان الواحد أفراداً مجتمعين ، يمثلون الأجناس الثلاثة التى يتكون منها سكان أمريكا الشمالية ، وسرعان ماأدركت من سمات كثيرة منوعة تغلب الجنس الأبيض وسيادته . ولكن الصورة التى رسمتها حوت شيئاً مؤثراً كل التأثير . فثم آصرة مودة ربطت المظلومين بالظالمين ، إلا أن الجهود التى بذلتها الطبيعة فى التقريب بين هذه الأجناس ، قد أبرزت الفرق الشاسع الذى خلقته فيها القوانين وضروب التحيز والتعصب .

القبائل الهندية التى تقطن الولايات المتحدة حالتها الحاضرة وما يحتمل أن تكون عليه فى المستقبل

اختفاء القبائل الأصلية التدريجى - كيف حدث هذا الاختفاء - ما يترتب على هجرات الهنود الاضطرارية من ضروب البؤس - ليس لدى المتوحشين فى أمريكا الشمالية سوى وسيلتين للتخلص من الهلاك : إما الحرب وإما التحضر . لم تعد الحرب فى مقدورهم - الأسباب التى جعلتهم يأبون الأخذ بأساليب الحضارة عندما كان ذلك فى وسعهم ، والأساليب التى جعلتهم عاجزين عن الأخذ بها عندما يريدون أن يتحضروا فعلا - حالة قبيلتى الكريك والتشروكى - سياسة الولايات المتحدة المختلفة تجاه هؤلاء الهنود - سياسة الحكومة الفدرالية إزاءهم .

لم يعد الآن لأية قبيلة من قبائل الهنود التى كانت تقطن إقليم نيوإنجلند أمثال قبائل النراجنست ، والموهيكان والبكوت أى وجود إلا فى ذاكرة الناس . وقد زالت الآن قبيلة

اللينابس التى استقبلت (وليم بن)[١] على ضفاف نهر الديلاوير منذ مائة وخمسين سنة مضت . هذا وقد التقيت بفلول قبائل « اليوروكوا » وهم يسألون الناس إحساناً . لقد كانت هذه الشعوب التى ذكرتها تعيش فى أمريكا منتشرة فى البلاد حتى الشواطىء ، أما اليوم فعلى السائح أن يتوغل فى القارة أكثر من مائة فرسخ قبل أن يصادف هندياً واحداً . وهذه القبائل المتوحشة لم تتراجع إلى داخل القارة فحسب ، بل هلك أكثرها . وكلما تراجعت أمة منها أو هلكت جاء شعب آخر كثير العدد فاحتل مكانها وظل يتزايد بسرعة ، ولم يسبق أن قرأنا فى التاريخ المسطور شيئاً عن شعب يتزايد بهذه الكثرة أو يهلك بهذه السرعة . أما كيف حدث هذا الهلاك الذريع فأمر لايعز علينا وصفه .

فعندما كان الهنود يقطنون وحدهم دون شريك ، البرارى التى أصبحوا يطردون منها الآن ، كانت احتياجاتهم قليلة ، وكانت أسلحتهم من صنع أيديهم ، وشرابهم الوحيد من مياه الأنهار ، وملابسهم من جلود الحيوان الذى يتخذون منه طعامهم .

ثم جاء الأوربيون وأدخلوا بين همجيى أمريكا الشمالية الأسلحة النارية ، والخمور والحديد ، وعلموهم أن يتخذوا ملابس لهم من الأقمشة المنسوجة بدلاً من تلك الملابس الخشنة التى ترضى سذاجتهم غير المدربة . وبعد أن اكتسب الهنود أذواقاً جديدة من غير أن يتعلموا الفنون التى تمكنهم من إرضاء هذه الأذواق ، اضطروا إلى أن يلجأوا إلى ما يصنعه الرجال البيض . وإذ ليس عند الهندى ما يقايض به سوى الفراء الثمينة التى مازالت كثيرة فى غاباتهم فكان لابد له من الصيد والطراد ، لا ليسد رمقه فحسب ، بل ليرضى رغائب الأوربيين وأهواءهم العابثة . فلم يعد الهندى يصيد الحيوان فى الغابات من أجل الحصول على قوته ، ولكن للحصول على الأشياء الوحيدة التى يستطيع أن يقايض بها ، وبذلك صارت موارد الهنود تتضاءل كلما ازدادت احتياجاتهم وتنوعت مطالبهم .

فمن اليوم الذى تستقر فيه جماعة من البيض فى مكان ما على مقربة من الإقليم الذى يحتله الهنود الحمر يستولى الذعر على حيوانات الصيد ، على غير عاداتها عندما كان الآلاف من المتوحشين الرحل يجوسون خلال الغابات ، وذلك لأنهم لا مساكن لهم ثابتة . ولكن ما إن أخذت أصوات المصانع الأوربية تدوى باستمرار على مقربة منها ، حتى جعلت هذه الحيوانات تجفل وتهرب متجهة نحو الغرب ، فهى تعرف بغريزتها أنها تستطيع أن تجد فيه قفاراً ومجاهل مازالت لا حد لها ولا نهاية . قال السيدان كاس وكلارك فى تقرير لهما رفعاه إلى الكونجرس فى الرابع من فبراير سنة ١٨٢٩ : « أن قطعان الجاموس تتراجع باستمرار ، فقد بلغت منذ سنوات قلائل سفوح جبال الألجانى ، وبعد بضع سنين أخرى قد تصبح

---

(١) وليم بن (١٦٤٤ - ١٧١٤) إنجليزى ينتمى إلى طائفة دينية يعرف أعضاؤها بالكويكوز ، منحه ملك الإنجليز قطعة أرض كبيرة فى أمريكا سداداً لدين كان عليه لأبيه فجعلها (بن) ملجأ لأبناء طائفته المضطهدين والفارين من إنجلترا وأسماها بنسلفانيا .

نادرة حتى فى السهول المترامية الأطراف التى تمتد على طول سفوح جبال روكى». لقد تأكد لى بأن هذا التأثير لاقتراب الرجل الأبيض أصبح يُستشعر به على مسافة ألفى فرسخ من حدودها . وهكذا صار نفوذ الأوربيين البيض يسيطر على قبائل لا يعرفون عنها حتى اسمها ، وصارت تعانى الكثير من مساوىء الاغتصاب وشروره قبل أن تعلم شيئاً عمن كانوا السبب فيما حل بها من شقاء .

وسرعان ما تقوم جماعات من المغامرين الجريئين وتتوغل فى البلاد التى غادرها الهنود . وعندما تصل هذه الجماعات إلى ما يبعد حوالى الخمسة عشر أو العشرين فرسخاً من أقصى حدود البيض ، تشرع فى إنشاء مساكن للناس المتحضرين فى قلب البرارى نفسها ، من غير أن تجد فى ذلك أية مشقة ، فحدود الأقاليم التى تقطنها شعوب تعيش على الصيد والطرد ، غير معينة ، وأراضيها ملك مشاع للقبيلة كلها ، وليست ملكاً لفرد أو أفراد معينين . ومن ثم لم يكن لأحد فى أى جزء منها مصالح شخصية يدافع عنها .

ولا تلبث بعض الأسر الأوربية التى تحتل مواقع متباعدة كل البعد بعضها عن بعض ، أن تطرد الحيوانات المتوحشة التى تهيم فى الأراضى التى بين مساكنهم ، وسرعان ما يدرك الهنود الذين كانوا يعيشون من قبل عيشة رضية بشكل ما ، أن وسائل العيش قد أصبحت متعذرة وشاقة عليهم ، وأشق منها أن يجدوا سبيلاً للحصول على الأشياء التى يقايضون بها ما يحتاجون إليه من سلع الأوربيين . فقد كان لطرد حيوانات الصيد من الأثر فيهم ما يشبه تأثير تحول الحقول إلى أراض جدباء فى نفوس المزارعين . وإذ حرم الهنود وسائل العيش فقد أصبحوا كالذئاب الجائعة يجوسون خلال الغابات التماساً للفريسة . إن محبتهم الغريزية لأوطانهم التى درجوا فيها جعلتهم يتعلقون بأراضيها كل التعلق ولكنهم صاروا لا يجدون فيها الآن غير البؤس والهلاك ، وانتهى بهم الأمر إلى الرضوخ للواقع ، والرحيل عنها مقتفين أثر حيوانات مثل التيتل والجاموس والقندس يستهدون بها فى اختيار وطن جديد لهم . ففى الحق إذن لم يكن الأوربيون هم الذين طاردوا أهالى أمريكا الأصليين ، وإنما الذى طاردهم هو الجدب . وذلك فرق عجيب فات أمره أولئك المسفسطين القدامى ، واهتدت إليه الكشوف الحديثة .

ليس من السهل علينا أن نتصور الشدائد والآلام . التى ترتبت على هذه الهجرات الاضطرارية التى قام بها شعب منهوك القوى فقد كثيراً من أعضائه . وكانت الأراضى التى اتجه إليها هؤلاء النازحون مأهولة ، فقد سبقهم إليها قبائل سكنتها ولم يكن يسعها عندئذ إلا أن تستقبل الوافدين عليها بالحذر وإضمار العداوة . لقد كان وراءهم الجوع ، وأمامهم الحرب ، وحولهم الشقاء يحيط بهم من كل جانب . فلكى يتخلصوا من هذه الأعداء الكثيرة قرروا أن ينفصلوا بعضهم عن بعض وأن يحاول كل منهم أن يسعى وحده وراء رزقه خفية من الآخرين ، وذلك بأن ينعزل عنهم ويعيش فى الصحارى الواسعة أشبه بطريد من طرداء المجتمع المتحضر . وعندئذ تنحل الآصرة الاجتماعية بعد أن ظل الشقاء ينخر فيها

ويضعفها زمناً طويلاً . لم يعد للهنود وطن ، وبعد قليل لن يكونوا شعباً . فقد زالت أسرهم أو كادت ، واختفى كل شيء حتى اسمهم العام ، وانقرضت لغتهم ، وانطمس كل أثر من آثار أصلهم ، ولم يعد لأمتهم أى وجود ، اللهم إلا فى ذاكرة رجال العاديات الأمريكيين وحفنة من علماء أوربا .

إنى ليؤسفنى أن يتصور القارىء أنى قد أسرفت هنا فى ألوان الصورة التى رسمتها . فقد رأيت بعينى رأسى كثيراً من أنواع البؤس التى وصفتها توا ، وكنت شاهد عيان لآلام ومتاعب يشق علىَّ تصويرها فعلاً .

ففى أواخر سنة ١٨٣١ ، وأنا على الضفة اليسرى من نهر المسيسبى ، وفى موضع أسماه الأوربيون «ممفيس»[1] ، وصلت فرقة كبيرة من قبيلة الشوكتو (أو التشاكتا كما يسميهم الفرنسيون فى لويزيانا) . فقد غادر هؤلاء المتوحشون بلادهم ، وجاءوا يحاولون أن يبلغوا ضفة المسيسبى اليمنى حيث رجوا أن يجدوا لهم فيها موئلا ، كانت الحكومة قد وعدتهم به ، وكنا وقتئذ فى قلب الشتاء ، والبرد قارس على غير العادة ، فقد تجمد الثلج على الأرض ، وكانت كتل الأجماد الجسيمة تنساب فى نهر ، وكان الهنود قد اصطحبوا معهم أسرهم ، ومن خلفهم المرضى والجرحى والأطفال الحديثو الولادة ، والشيوخ الفانون الذين أوشكوا على مفارقة هذه الدنيا . ولم يكن معهم خيام ولا عربات ، وليس لديهم غير أسلحتهم ، وغير قليل من المؤن . فشاهدتهم يركبون السفن ليعبروا بها النهر العظيم . وكان مشهداً أى مشهد ، لن ينمحى أثره من ذاكرتى . فلم تكن تسمع فى هذا الحشد المجتمع صرخات ولا أنات ، بل لزموا الصمت جميعاً . فلم تكن مصائبهم هذه بالشيء الجديد ، وهم يعلمون حق العلم أن لا علاج لها . فركبوا جميعاً السفينة التى ستحملهم إلى العدوة الثانية من النهر وبقيت كلابهم على البر . فلما رأت أصحابها قد غادروا الشاطىء حقاً جعلت تعوى عواء منكراً ، ثم ألقت بنفسها فى مياه نهر المسيسبى ، وكانت باردة برودة الثلج ، وظلت تعوم خلف السفينة التى تحمل أسيادها .

والآن ، كثيراً ما يحدث أن يطرد الهنود عن أراضيهم بطريقة منظمة كما لو كانت طريقة قانونية . فعندما يبدأ الأوربيون فى الاقتراب من أطراف الفيافى التى تقطنها قبيلة من القبائل المتوحشة ، تبعث حكومة الولايات المتحدة عادة برسلها ليجمعوا الهنود فى سهل فسيح ، وبعد أن يتناولوا معهم الطعام والشراب يخاطبونهم قائلين : «لماذا عليكم أن تعملوا فى أرض أجدادكم ؟ إنه لن يمضى عليكم زمن طويل حتى تنبشوا عظامهم كى تستطيعوا أن تعيشوا . فبأى شيء تمتاز الأراضى التى تسكنونها على غيرها ؟ ألا توجد غابات ومناقع غير تلك التى تعيشون فيها ؟ ألا يمكن أن تعيشوا إلا تحت شمسكم ؟ إن وراء تلك الجبال التى ترونها عند الأفق ، وتلك البحيرة التى عند طرف حد بلادكم الغربى ، بلاداً مترامية الأطراف ، حيوانات الصيد فيها كثيرة . فبيعونا أراضيكم هذه ، وامضوا أنتم وعيشوا سعداء فى تلك الفيافى المنعزلة» وبعد هذا الحديث ينشرون أمام

(١) مدينة كبيرة يبلغ عدد سكانها أكثر من ٦٥٢ ألف نسمة (١٩٩٠) .

أعينهم الأسلحة ، والملابس الصوفية ، وزقاق الخمر ، وعقوداً من الخرز والزجاج وأساور زائفة ، وأقراطاً ومرايا . فإن هم ترددوا بعد مشاهدتهم هذه الثروات البراقة أوحوا إليهم أنهم لا يستطيعون أن يرفضوا ما عرض عليهم ، وأن الحكومة نفسها لا تستطيع أن تظل تعمل طويلا على حمايتهم . فماذا عساهم أن يعملوا؟ إنهم نصف مقتنعين ونصف مكرهين ، فليس أمامهم إلا أن يمضوا لسكنى الفيافى ، حيث لا يدعهم البيض الملحفون يلبثون ما يزيد على عشر سنوات فى سلام ، وهكذا نرى الأمريكيين يحصلون بثمن بخس على أقاليم برمتها يعجز أغنى ملوك أوربا عن شرائها .

إنها لا شك شرور كبيرة تلك التى وصفتها توا . ويحسن بى أن أضيف أنها شرور لا علاج لها فى نظرى ، وأن هنود أمريكا الشمالية - قضى عليهم بالهلاك ، ولا يسعنى إلا أن أقول إنه حينما يحل الأوربيون على شواطىء المحيط الهادى وترسخ أقدامهم فيها يكون الهنود الحمر قد قضى عليهم بالزوال . فليس أمامهم فى أمريكا الشمالية سوى طريقتين اثنتين : الحرب أو الحضارة . وبعبارة أخرى : إن عليهم أن يقضوا على الأوربيين أو أن يصبحوا مساوين لهم .

ولو أن الهنود اتحدوا وجمعوا قواهم عند بداية استعمار الأوربيين بلادهم لكان من الجائز أن ينقذوا نفوسهم من أيدى تلك الحفنة الصغيرة من الأجانب الذين نزلوا بشواطىء قارتهم . وفعلاً حاولوا ذلك أكثر من مرة ، وكادت جهودهم أن تكلل بالنجاح ، أما الآن فمدى التفاوت بين مواردهم وبين موارد البيض شاسع شسوعاً لا مجال معه لأن يخطر ببال أحد منهم أن يضطلع بمثل هذا المشروع الآن . ومع ذلك فقد ينبغ بين الهنود الحمر رجال ألمعيون ، أدركوا سلفاً المصير المحتوم الذى يتربص بأقوامهم ، وقد بذلوا جهدهم فى جمع القبائل كلها على مناصبة الأوربيين العداء ، ولكنها كانت جهوداً ضاعت سدى . فقد ضعفت القبائل المجاورة لمنازل البيض كل الضعف ، حتى لم يعد فى طاقتها ، أن تقاومهم مقاومة مجدية . أما القبائل الأخرى فقد استسلمت إلى ذلك النوع من الاستهتار الطفلى بما يأتى به الغد ، وهو الاستهتار الذى تتسم به أخلاق الشعوب البدائية ، وجعلت تنتظر ، حتى يدهمهم الخطر فتهب لمواجهته . كانت بعض القبائل إذن لا تستطيع أن تعمل ، وكانت الأخرى لا تريد أن تعمل .

ومن السهل أن ندرك أن الهنود لن يعملوا على أن يتحضروا ، فالوقت يكون قد فات عندما يحاولون القيام بمثل هذه التجربة .

فالحضارة ثمرة عملية اجتماعية طويلة الأمد تجرى فى إقليم معين ، ويتوارثها الناس جيلاً بعد جيل ، كل جيل يفيد من الذى سبقه . فالأمم التى لا تخضع لعوامل الحضارة إلا بكل مشقة هى الأمم التى تعيش على الصيد . ولا شك فى أن الشعوب الرعوية كثيراً ما تغير منتجعاتها ، ومواطنها ، ولكنها تتبع فى ذلك نظاماً معيناً . هذا ، وإنها كثيراً ما تعود إلى مراكزها القديمة ، على حين أن مساكن الصيادين تختلف باختلاف مثابة الحيوانات التى تطاردها .

وعملت محاولات عدة لنشر التعليم بين الهنود الحمر من غير أن يعمل شيء لوقف نزعاتهم إلى النقلة والترحال . وقام بهذه المحاولات اليسوعيون فى كندا ، و « المتطهرون » فى نيوإنجلند ، ولكن أى محاولة منها لم تكلل بالنجاح الدائم . لقد بدأت فكرة الحضارة فى الكوخ ولكنها سرعان ما نكصت وتراجعت لتموت فى أعماق الغابات . فغلظة هؤلاء المشترعين الكبرى التى وقعوا فيها بشأن الهنود ، أنهم لم يراعوا أن النجاح فى إدخال عوامل المدنية بين شعب ما يقتضى العمل على جعل هذا الشعب يستقر أولاً استقراراً نهائياً . وهو لا يتأتى إلا بحمله على العمل فى زراعة الأرض . فكان ينبغى تعويد الهنود العمل فى الزراعة من أول الأمر ، إذ لم يكن يعوزهم هذا العمل الأولى الذى لابد منه للحضارة فحسب ، بل كانوا يجدون مشقة كبيرة فى تعلم الحرث والزرع . فالقوم الذين استسلموا لحياة الصيد القلقة الحافلة بالمخاطر ، يشعرون بنفور كبير من العمل الدائب والرتيب . المستمر ، الذى تستلزمه فلاحة الأرض . وإنا لنشاهد ما يؤيد ذلك حتى فى مجتمعاتنا . ولكنه واضح كل الوضوح عند الأجناس التى تعد ميولهم إلى الصيد والطراد جزءاً من خلقهم القومى .

وزيادة على هذه الصعوبة العامة ، ثم صعوبة أخرى تصدق على الهنود بصفة خاصة ، فهم لا يعدون العمل شراً فحسب ، بل يرونه عاراً . فكبرياؤهم تناضل ضد الحضارة نضالاً عنيداً ، فضلاً عن أن كسلهم يحول دونها كذلك .

فلا يوجد هندى واحد ، مهما بلغ به البؤس ، لا يحتفظ فى كوخه المصنوع من لحاء الشجر بفكرة عالية عن قيمته الذاتية ، فإنه يعد هموم الصناعة ومشكلاتها الكثيرة أموراً تحط من قدره . وهو يشبه الفلاح بالثور الذى يجر محراثه ، ولا يرى فى كل صنعة أو مهنة من صناعاتنا ومهننا سوى عمل خليق بالعبد . وليس معنى ذلك أن الهندى لا يعجب بقوة البيض وبعظمتهم الفعلية . فإن كانت ثمرات جهود الأوربيين تستثير فيه الدهشة ، فإنه يحتقر وسائلهم التى يحصلون بها عليها . وبينما يعترف بتفوق الأوربيين ، فإنه مازال يؤمن مع ذلك بتفوقه هو . فالحرب والصيد هما المهنتان الوحيدتان الجديرتان بالرجال فى نظره ، فالهندى فى مجاهل الغابات المظلمة يستمسك بنفس الآراء والأفكار التى كان يستمسك بها « الشريف » فى العصور الوسطى ، فى قصره الحصين ، ولا ينقصه إلا أن يكون غازياً فاتحاً حتى يصبح التشابه بينهما كاملاً . فمهما بدا الأمر غريباً ، ففى غابات الدنيا الجديدة ، وليس بين الأوربيين الذين يقطنون عند سواحلها ، لاتزال توجد ضروب التعصب الأوربية القديمة .

لقد حاولت أكثر من مرة فى هذا الكتاب أن أشرح ما للأحوال الاجتماعية من سلطان عظيم على القوانين ، وعلى أخلاق الناس ، وأود الآن أن أضيف هنا بضع كلمات إلى هذا الموضوع .

فعندما أدرك وجوه الشبه التى بين مؤسسات أسلافنا الجرمان السياسية ، وبين قبائل أمريكا الشمالية الرحل ، أى بين العادات التى وصفها تاكيتوس ، وتلك التى شاهدتها عياناً

فى بعض الأحيان ، لا يسعنى إلا أن أقول إن نفس السبب أدى إلى نفس النتائج فى كل من نصفى الكرة الأرضية ، وإن فى وسط ذلك التنوع الظاهر فى شئون البشر ، توجد حقائق أولية معينة تيسر الوقوف عليها ، نشأت عنها سائر شئون الناس ، فلست أرى فيما نسميه عادة بالمؤسسات الجرمانية ، غير عادات همجية ، وسوى آراء المتوحشين ، فيما نسميه مبادىء إقطاعية .

فمهما تعارضت رذائل الهنود القاطنين شمال أمريكا ، وضروب تعصبهم تعارضاً شديداً مع اشتغالهم بالمهن الزراعية والأخذ بوسائل الحضارة ، فلا مراء من أن الضرورة قد تدفعهم إليها فى بعض الأحيان . فقد وجدت قبائل جنوبية كبيرة ، ومنها قبيلتا التشروكى والكريك ، رأت نفسها محوطة بالأوربيين الذين نزلوا على شواطىء المحيط الأطلسى ثم وصلوا إلى حدودهم ، إما عن طريق نهر الأوهايو ، وإما عن طريق نهر المسيسبى . فهذه القبائل لم تطرد إذن ، ولم تشرد من مكان إلى مكان ، كما كان شأن إخوانهم الضاربين فى الشمال ، ولكن الأوربيين ظلوا يضيقون عليهم الحصار شيئاً فشيئاً حتى حصروهم فى مكان ضيق ، وحاشوهم كما يحاش الصيد ، قبل أن يهجم عليه القناص . وهكذا انحصر هؤلاء الهنود بين الموت والحضارة ، فوجدوا أنفسهم مضطرين إلى أن يعيشوا من عرق جبينهم ويعملوا كما يعمل البيض ، مما يعد فى نظرهم سبة وعاراً . ومع ذلك فقد اتجهوا إلى الزراعة . فمن غير أن ينزلوا عن عاداتهم ويتخلوا عن آدابهم القديمة تماماً ، لم يضحوا منها فى الواقع إلا بالقدر الذى لابد لهم من أن يضحوا به كي يعيشوا .

هذا ، وقد سار « التشروكى » أبعد من ذلك مدى ، فقد وضعوا لغة مكتوبة وأقاموا لهم شكلاً مستقراً من أشكال الحكم . وإذ كل شىء فى العالم الجديد يجرى بسرعة عظيمة فقد أنشأوا لهم صحيفة يومية ، قبل أن يحصل كل منهم على ملابس يستر بها جسمه .

وكان لنشوء الجنس الهجين اليد الطولى فى تقدم هؤلاء الهنود الحثيث فى الأخذ بعادات الأوربيين . فقد ورث هؤلاء الهجناء الذكاء عن آبائهم من غير أن يفقدوا عادات أمهاتهم الوحشية تماماً ؛ ومن ثم صاروا يعدون حلقة اتصال طبيعية بين الحضارة والهمجية . فحينما تكاثر عدد هذا الجنس تتعدل حالة الهنود الاجتماعية شيئاً فشيئاً ، ويحدث تغيير فى أحوال الشعب وعاداتهم الأخلاقية .

ويدل نجاح « التشروكى » هذا على أن الهنود قابلون للأخذ بأساليب الحضارة ، ولكنه لا يدل على أنهم سينجحون فيما حاولوا . وتنشأ الصعوبة التى يلاقونها فى اصطناع هذه الأساليب عن سبب عام يكاد يستحيل عليهم أن يتحاشوه . فلو أنا رجعنا إلى التاريخ ندرسه بمزيد من التعمق ، لاتضح لنا أن الأمم الهمجية فى جملتها ، لم ترتق إلى الحضارة إلا تدريجياً ، وبما تبذله هى نفسها من جهود . وكلما استمد أهل تلك الأمم المعرفة من شعب أجنبى ، وقفوا حياله موقف القاهر المنصور ، لا موقف الشعب المقهور . فإن كانت الأمة

المغلوبة مستنيرة وكان الغزاة نصف متوحشين ، كما كانت الحال عند غزو برابرة الشمال للإمبراطورية الرومانية ، وغزو المغول للصين ، صارت القوة التى يضفيها النصر على المتوحشين كافية للاحتفاظ بأهميتهم بين المتحضرين ، وتسمح لهم (المتوحشين) أن يقفوا وإياهم فى مستوى واحد حتى ليعدوا مناظرين لهم وأنداداً ؛ فلفريق القوة والسلطان ، وللآخر العقل والفطنة . فالأول يعجب بما لدى المقهورين من ذكاء ، ويحسد الثانى الغزاة على ما لديهم من قوة . وأخيراً يرضى الهمجيون أن يسمحوا للرجل المتحضر بدخول قصورهم ، ويفتح لهم بدوره مدارسه . ولكن عندما يملك الجانب الذى فى صفه القوة المادية تفوقاً عقلياً إلى جانب تفوقه المادى يندر أن يتحضر المقهور . فهو إما ينكص أو يهلك . ومن ثم فلا بأس من أن نقول بوجه عام إن المتوحشين يمضون مسلحين سعياً وراء المعرفة ولكنهم لا يتقبلونها إذا ما جاءت هى تسعى إليهم .

لو نشطت القبائل الهندية التى تحتل قلب القارة الآن النشاط الكافى وحاولت أن تأخذ بأسباب الحضارة لجاز لها أن تنجح . فإذا كانت تفوق الأمم الهمجية التى تحيط بها ، فإنها ستكتسب تدريجياً قوة وخبرة ، حتى إذا ما ظهر الأوربيون عند حدودهم كانوا فى حالة ، إن لم تمكّن لهم من أن يصونوا استقلالهم ، فهى تمكنهم ، على الأقل ، من إثبات حقوقهم فى الأراضى التى يشغلونها ، كما تيسر لهم أن يندمجوا فى الفاتحين . ولكن من سوء حظ هؤلاء الهنود أن يجىء اتصالهم بشعب متحضر من أشد الشعوب جشعاً (وهذا ما يجب أن نعترف به) ، على حين لا يزالون هم نصف همج ، وأن يجدوا سادتهم بين معلميهم ، وأن يتقبلوا التعليم والظلم معاً فى وقت واحد . ولما كان الهندى الذى يعيش فى أمريكا الشمالية فى حرية كاملة وسط الغابات ، فقيراً معدماً ، ومع فقره هذا لا يشعر بأنه دون أحد ، فإنه إن رغب مع ذلك فى الاندماج فى حياة البيض الاجتماعية ، لم يستطع أن يشغل سوى أدنى المراكز الاجتماعية ، لأنه إنما يدخل دوائر العلم والمال جاهلاً فقيراً . فبعد أن كان يحيا حياة كلها استثارة وتهيج ، حافلة بالأخطار والشرور ، مليئة فى الوقت نفسه بانفعالات كلها صلف وكبرياء ، يجد نفسه مضطراً إلى الرضوخ لحالة متعبة خاملة ووضيعة ذليلة . فكسب المرء عيشه بالعمل الكادح الذليل يعد فى نظره النتيجة الوحيدة التى تستطيع الحضارة أن تفخر بها ، وحتى هذا العيش الذليل ليس ميسوراً له دائماً فى كل حال .

فعندما يحاكى الهنود جيرانهم الأوربيين بأن يحرثوا الأرض كما يحرثونها ، يتعرضون مباشرة لمنافسة قوية . فالرجل الأبيض يحذق مهنة الزراعة كل الحذق ، على حين الهندى مبتدىء فيها ، لا عهد له بها . فبينما يجنى الرجل الأبيض غلات طيبة من أرضه فى غير مشقة ، يجد الهندى آلافاً من العقبات تقوم فى سبيل الحصول على ثمرات أرضه .

ويعيش الأوربى بين ظهرانى أقوام يعرف احتياجاتهم ومطالبهم ويشترك معهم . أما الهمجى فيعيش وحده معزولاً وسط شعب يناصبه العداء ، ولا يعرف من عاداته ، ولغته

وقوانينه إلا القليل . ومع ذلك فإنه لا يستطيع أن يعيش من غير معاونتهم ، ولا هو يستطيع أن يحصل على الراحة المادية إلا بأن يقايض بسلعه السلع التى ينتجها الأوربيون . فمساعدة بنى بلدته له لم تعد تكفى مطلقاً لسد احتياجاته . فإن أراد الهندى ، أن يبيع شيئاً من إنتاجه ، لم يجد المشترى أمامه دائماً ، على حين يجد الأوربى مباشرة السوق التى تروج فيها منتجاته ، ذلك إلى أن الهندى لا يستطيع أن ينتج ما يبيعه الأوربى بأثمان قليلة ، إلا بنفقات كثيرة باهظة . وهكذا لم يكد الهندى يفلت من الشرور التى تتعرض لها الشعوب الهمجية حتى يجد نفسه عرضة لما فى الجماعات المتحضرة من ضروب من البؤس والشقاء أشد وأقسى ، وصار يجد أن المعيشة وسط الرخاء والخيرات التى تنتجها له الحضارة ، لا تقل صعوبة عن الحياة فى الغابات التى درج على المعيشة وسطها .

فهو لم يتخل بعد عن حياة النقلة والترحال ، فتقاليد آبائه ، وتشوقه إلى الصيد والطراد لا تزال حية قوية فى نفسه . والملذات الوحشية التى كانت تسترعيه من قبل فى الغابات أضحت تؤذى خياله المضطرب ؛ وصارت ضروب الحرمان التى كان يقاسيها فى همجية تبدو له أهون مما هو فيه وسط مظاهر الحضارة ؛ وكذلك تبدو الأخطار السابقة التى كان يعانيها ، أقل جسامة وفظاعة ، حتى صار يوازن بين الاستقلال الذى كان ينعم به بين ظهرانى إخوانه المساوين له ، وبين مركزه الذليل الذى صار له فى المجتمع المتحضر . هذا ، ومن جهة أخرى ، مازالت المجاهل التى ظل يعيش فيها طويلاً وهو حر ، على مقربة منه وفى متناوله ، ولا تجشمه العودة إليها من جديد إلا مسيرة بضع ساعات . إن البيض يغرونه بمبالغ تافهة تبدو ضخمة فى نظره ، لقاء أراضيه التى أزال الغابات عن جزء منها ، وصار يحصل منها على الكفاف بكل مشقة . وقد تمكنه أموال الأوربيين هذه من أن يعيش عيشة سعيدة هانئة بعيداً عنهم كل البعد ، وعندئذ يهجر المحراث ويستأنف العمل بأسلحته الأهلية ، ويعود إلى المجاهل والقفار عودة لا رجعة بعدها ؛ وحسبنا ما أشرنا إليه من أحوال قبيلتى الكريك والتشروكى تأييداً لصدق هذه الصورة التى رسمناها .

وليس شك فى أن الهنود قد أبدوا فى القليل الذى أنجزوه عبقرية طبيعية لا تقل عما أبدته شعوب أوربية فيما قامت به من جلائل الأعمال . ولكن لا يخفى على القارىء أن الأمم كالأفراد تقضى وقتاً طويلاً لتتعلم ، مهما أوتيت من ذكاء فطرى ، ومهما أبدت من غيرة وحماسة . فبينما كان الهمجيون يحاولون أن يتحضروا ، ظل الأوربيون يحدقون بهم من كل جانب ويحصرونهم فى نطاق ضيق ، وشيئاً فشيئاً تقابل الجنسان ، وهما الآن متصلان بعضهما ببعض ، اتصالاً مباشراً . فالهندى الهجين يفوق والده الهمجى ، ولكنه لا يزال مع ذلك دون جاره الأبيض بمراحل طويلة ؛ وسرعان ما قام الأوربيون بما عندهم من موارد ، وما لديهم من معارف ، بانتحال معظم المزايا التى كان يمكن أن يفيد منها الهنود من جراء تملكهم الأراضى . فقد حلوا بين ظهرانيهم واشتروا منهم الأراضى بأبخس الأثمان ، أو هم احتلوها عنوة ، أما الهنود أنفسهم فقد أرهقتهم المنافسة التى لا قبل لهم بالصمود

أمامها ، فأصبحوا منعزلين فى عقر دارهم . ولم يعد جنسهم سوى جالية قليلة من الأغراب المشاغبين وسط شعب كثير العدد بيده القوة والسلطان .

قال جورج واشنطن[1] فى رسالة له فى الكونجرس « نحن أكثر استنارة من الشعوب الهندية ، وأقوى منها ، فالشرف يقتضينا إذن أن نعاملهم بالكرم الواسع لا بالرفق فحسب ... » . إلا أن هذه السياسة النبيلة الرشيدة لم تجد من يصغى إليها ، ويسير عليها . فقد كان استبداد الحكومة يؤيد جشع المستوطنين عادة . ومع أن قبائل « التشروكى » قامت فى إقليم سكنوه قبل أن يصل الأوربيون إلى هذه القارة ، وعلى الرغم من أن الأمريكيين كثيراً ما عاملوهم كما يعاملون الأمم الأجنبية ، فإن الولايات المحيطة بهم أبت أن تعترف بهم أمة مستقلة ، وجعلت تخضع أبناء الغابة هؤلاء للموظفين من الأمريكيين ، ولعادات الأمريكيين وقوانينهم . فدفع الفقر هؤلاء البائسين إلى الأخذ بأساليب الحضارة ، ويدفعهم الظلم الآن إلى العودة إلى البرارى ، فجعل كثيرون منهم يغادرون الأراضى التى شرعوا فى إعدادها للزراعة ، ويعودون إلى حياة الهمجية .

لو أنا اعتبرنا الإجراءات الاستبدادية التى اتخذتها الهيئات التشريعية فى الولايات الجنوبية ، وسلوك حكامها ، والأحكام التى أصدرتها محاكمها - سوف نقتنع بأن الطرد الجماعى للهنود إن هو إلا النتيجة النهائية التى أصدرتها محاكمها التى تتجه إليها كل جهود السياسة فى تلك الولايات . فالأمريكيون الذين فى هذا الجزء من الاتحاد ينظرون بعيون الحسد والطمع إلى الأراضى التى مازالت فى أيدى الهنود ، وهم يعلمون أن هذه القبائل لم تفقد بعد تقاليد الحياة الهمجية ، وأنهم قبل أن توثق الحضارة الروابط التى بينهم وبين الأرض الزراعية نهائياً ، كانت النية مبيتة لإجبارهم على الرحيل عنها ، وذلك يدفعهم إلى اليأس . فبعد أن عانت قبيلتا « الكريك » و « التشروكى » الكثير من صنوف الاضطهاد على أيدى ولايات مختلفة ، التجأت إلى الحكومة المركزية التى لم تكن قد أصبحت بعد جامدة الحس ، لا تشعر بكل ما حل بهذه الأقوام من كوارث . وكانت الحكومة هذه ترغب مخلصة فى إنقاذ ما تبقى من الأهالى الهنود وتدعهم أحراراً ، فى ملكيتهم لذلك الجزء من الإقليم الذى كفله لهم الاتحاد . ولكن عندما أخذ ينفذ هذه الخطة ، هبت الولايات تقيم الصعوبات الكأداء فى سبيله وقاومته مقاومة شديدة حتى اعتزم أن يأخذ بالطريق الأسهل وأن يدع بضع قبائل همجية تهلك ، كما هلك نصفها فعلاً من قبل ، كل ذلك حتى لا يعرض سلامة الاتحاد الأمريكى للخطر .

ولكن الحكومة « الفدرالية » التى عجزت عن حماية الهنود كانت راغبة فى التخفيف مما يعانونه من المتاعب الكثيرة التى جرها عليهم نكد الطالع ، وبهذه النية قررت نقلهم إلى أقاليم نائية على نفقة الدولة .

فبين خطى عرض ٣٢° ، ٣٧° ، شمالاً يقع إقليم واسع مسمى أركنساس باسم النهر الذى يرويه . ويحد هذا الإقليم من جهة تخوم المكسيك ، ويحده نهر المسيسبى من الجهة

(١) أول رئيس للولايات المتحدة (١٧٨٩ - ١٧٩٧) وقائد شعبها فى حروب الاستقلال ضد الانجليز .

الأخرى ، وتخترقه من كل اتجاه عدة أنهار لا تحصى . أما مناخه فمعتدل وتربته خصيبة ، ولا يعيش فيه سوى بضعة حشود من الهمجيين الرحل . فأرادت حكومة الاتحاد أن تنقل فلول سكان الجنوب الأصليين إلى الجزء المجاور لبلاد المكسيك من هذا الإقليم ، وعلى مسافة بعيدة من الأماكن التى استوطنها الأمريكيون .

ففى أواخر سنة ١٨٣١ قيل لنا بصورة التأكيد إن عشرة آلاف هندى قد مضوا فعلا إلى شواطىء الأركنساس . وأن فرقاً جديدة تنضم إليهم باستمرار ، ولكن الكونجرس عجز عن أن يوحد عزائم أولئك الذين يميل إلى حمايتهم . نعم إن بعضاً منهم رضوا مغتبطين أن يغادروا مباءة الظلم الذى عانوه ، إلا أن أكثر أعضاء العشيرة استارة رفضوا أن يغادروا منازلهم الحديثة ومحصولاتهم التى لاتزال قائمة فى الحقول . فقد كانوا يرون أن عملية التمدين إذا ما طرأ عليها ما يعطلها فلن تعود وتستأنف عملها من جديد ، فهم يخشون على تلك العادات التى اكتسبوها حديثاً أن تضيع منهم وتزول إلى غير رجعة وسط بلاد لاتزال على حالتها الهمجية ، وحيث لاشىء قد أعد منها من قبل لبقاء شعب زراعى فيها . فهم يدركون أن دخولهم هذه البرارى والمجاهل سيقابل بمعارضة قوية من حشود معادية ، وأنهم قد فقدوا همة الهمجيين من غير أن يحصلوا على موارد الحضارة التى تيسر لهم أن يقاوموا هجماتهم عليهم . وزيادة على ذلك فسرعان ما استكشف الهنود أن المقر المعروض عليهم ليس إلا مقراً مؤقتاً . فمن ذا الذى يضمن لهم البقاء فى هذا الموضع الجديد آمنين فى سلام ، وأن تتعهد لهم الولايات المتحدة أن تبقيهم فيه؟ إن الإقليم الذى كانوا يشغلونه سبق أن خصص لهم بأغلظ الأيمان . نعم إن الحكومة الأمريكية لم تعد تسلبهم أراضيهم ، ولكنها لاتمانع فى تحيفها والعدوان عليها باستمرار ، ثم لاتمضى بضع سنوات حتى يعود هذا الشعب الأبيض نفسه الذى يحتشد حولهم ، ويقتفى آثارهم ويطاردهم من جديد إلى مغاور الأركنساس . وعندئذ يتعرضون للشرور ذاتها من غير أن يكون لديهم نفس العلاج . وإذ لامناص من أن الأرض ستضيق بهم ، فلم يعد يتبقى لهم ملجأ يلوذون به سوى القبر .

إن الاتحاد يعامل الهنود الحمر بأقل مما تعاملهم به الولايات المختلفة من حيث الجشع والعنف . ولكن حكومة الاتحاد ، و حكومات الولايات المختلفة ، كلها سواء فى الغدر بهم وسوء النية نحوهم . فالولايات تمنح الهنود ما تسميه نعمة القوانين ، معتقدة أن القبائل الهندية تؤثر أن تتراجع على أن تخضع لتلك القوانين . أما الحكومة المركزية التى تعد هذه الخلائق البائسة بملجأ دائم تأوى إليه فى الغرب ، فتعلم حق العلم أنها أعجز من أن تفى لهم بما تعدهم به . وهكذا نجد استبداد الولايات يكره الهمجيين هؤلاء على التراجع ، ويسره الاتحاد لهم بما يقطعه على نفسه من عهود . وبما له من موارد . ولا يخفى أن هذه الإجراءات كلها إنما تهدف إلى غرض واحد بعينه .

جاء فى الشكوى التى رفعتها قبيلة «التشروكى» إلى الكونجرس :

«لقد شاء الله تعالى ، حاكم هذه الدنيا ، أن يصبح الرجل الهندى ضئيلاً قمئاً ، والرجل

الأبيض عظيماً شهيراً . فلما حل أجداد شعب الولايات المتحدة بشواطىء أمريكا لأول مرة ، وجدوا الرجل الأحمر قوياً ، ومع أنه كان جاهلاً متوحشاً فقد أكرم استقبالهم ، ومنحهم الأراضى الجافة كى يريحوا فيها أقدامهم المتعبة ، فتقابلوا جميعاً فى سلام ، وتصافحوا ، وكان تصافحهم هذا دليلاً على الصداقة . وكان الهنود يقدمون للرجل الأبيض كل ما يحتاج إليه عن ارتياح وطيب نفس . فقد كان الهندى فى ذلك الوقت السيد المطاع ، لاترد له كلمة ، على حين كان الرجل الأبيض هو الطالب المستجدى . ولكن الحال تبدلت الآن غير الحال ، فانقلبت قوة الرجل الأحمر ضعفاً . وكلما ازداد جيرانه عدداً ، ظلت قوته تضعف شيئاً فشيئاً حتى لم يعد يتبقى من تلك القبائل الهندية الكثيرة العدد التى كانت منتشرة فى كل هذه الولايات المتحدة سوى عدد قليل . وهذا العدد القليل هو ما أبقاه لهم وباء جارف . فالقبائل الشمالية التى كانت فى الزمن القديم قوة كثيرة العدد ، كادت أن تنقرض الآن . وهكذا حدث للرجل الهندى فى أمريكا ما حدث . فهل سيكون مصيرنا نحن البقية الباقية مصيرهم كذلك ياترى ؟

« إنا ورثنا الأرض التى نقف عليها الآن عن أجدادنا الذين تملكوها من زمن بعيد هبة لهم من الله تعالى ، وقد ورثناها عنهم بوصفنا أبناءهم ، فرعيناها وصنَّاها مقدسة لأنها تشمل رفات رجالنا المحبوبين . ولم يحدث أبداً أنا قد نزلنا عن حق الميراث هذا ولم نضيعه قط . فخبرونا بأى حق يمكن أن يكون لشعب فى بلاد ما خيراً من حق الميراث ، ومن حق الحيازة الهادئة السليمة من زمن طويل لم تعد الذاكرة تعيه ؟ إنا لنعرف أن ولاية جيورجيا قالت من زمن قريب أنا خسرنا هذا الحق ، وهو ما قالته أيضاً سلطة الولايات المتحدة التنفيذية . ولكنا نعتقد أن هذا القول قد جاء اعتباطاً . فمتى خسرنا هذا الحق ؟ وما عسى أن تكون تلك الجريمة الكبرى التى اقترفناها ، والتى من أجلها يجب أن نجرد إلى الأبد من بلادنا ومن حقوقنا ؟ أكان ذلك عندما كنا معادين للولايات المتحدة واشتركنا ضدها مع ملك بريطانيا فى صراعها من أجل الاستقلال ؟ إن كان الأمر كذلك فلم لم يعلن هذا العزم فى أول معاهدة للصلح عقدت بين الولايات المتحدة وبين رجالنا المحبوبين ؟ ولم لم نذكر فيها فقرة مثل الفقرة الآتية : وتتعهد الولايات المتحدة بأن تكفل السلام لقبيلة « التشروكى » ولكن عقاباً لهم على اشتراكهم فى الحرب الماضية ، فالولايات المتحدة ، تعلن أنهم ليسوا سوى مستأجرين لهذه الأراضى ويصح إخراجهم منها إذا ما اقتضت ذلك مصلحة الولايات المجاورة لهم ، فعندئذ يكون هذا الوقت ملائماً لمثل الاستيلاء على هذه الأراضى ، ولكن أحداً لم يفكر فى ذلك ، وما كان آباؤنا ليوافقوا على أية معاهدة ترمى إلى تجريدهم من حقوقهم المقدسة لديهم كل التقديس ، وإلى حرمانهم من أوطانهم » .

تلك هى لغة الهنود ، وما يقولونه حق ، وما استشفوه وتنبأوا به يبدو أمراً محتوماً لامناص منه . فمن أية ناحية نظرنا إلى مصائر سكان أمريكا الشمالية الأصليين وإلى مقدراتهم اتضح لنا أن كوارثهم لاعلاج لها . فإن هم بقوا فى همجيتهم ظل البيض

الأمريكيون فى تقدمهم يسوقونهم أمامهم ، وإن حاولوا الأخذ بأسباب الحضارة ، كان اتصالهم بجماعات أكثر منهم مدنية يعرضهم لمعاناة الظلم والفقر ، فهم مقضى عليهم بالهلاك إذا ما ظلوا ينتقلون من قفر إلى قفر ، وإن حاولوا أن يستقروا لم يكن لهم أى مفر من الهلاك أيضاً . فمعاونة الأوربيين إياهم لابد منها لتعليمهم . ومع ذلك فاقتراب الأوربيين منهم يفسدهم ويدفعهم إلى العودة إلى حياة الهمجية ، فهم يأبون أن يبدلوا عاداتهم ماداموا مستقلين بشئونهم فى مجاهلهم القصية . وعندما يجدون أنفسهم مضطرين إلى الخضوع لغيرهم ، يكون الوقت الذى يستطيعون فيه تغيير عاداتهم قد فات .

لقد كان الإسبانيون يطاردون الهنود كالكلاب الكاسرة ، كما تطارد الوحوش ، وخربوا الدنيا الجديدة كما تخرب المدينة يأخذها الفاتح عنوة ، فيعيث فيها تدميراً وفساداً من غير تمييز ومن غير رحمة . ولكن لابد للتدمير من نهاية ، ولابد للجنون من آخر . هذا ، وقد اختلطت بقايا الهنود الحمر الذين أفلتوا من تلك المذابح ، بالفاتحين الذين قهروهم ، واعتنقوا بأخرة ديانتهم ، واعتادوا عاداتهم وآدابهم . أما مسلك أمريكى الولايات المتحدة حيال السكان الأصليين فقد تميز ، من جهة أخرى ، باستمساك غريب بشكلية القانون . فمادام الهنود متشبثين بعاداتهم الهمجية ، لم يتدخل الأمريكيون فى شئونهم ، بل عاملوهم على أنهم أمم مستقلة ، ولم يستولوا على أراضى صيدهم إلا بعد اتفاق معهم وتعاقد على الشراء . وإن حدث أن شعباً من شعوب الهنود قد أغير على أراضيه وتحيفت ، حتى ضاقت بمن بقى منهم ، فلم يعودوا يستطيعون العيش فيها ، أخذ الأمريكيون بأيديهم فى رفق ورحمة ونقلوهم إلى مقبرة لهم بعيدة كل البعد عن أراضى أجدادهم .

لقد عجز الإسبانيون عن إبادة جنس الهنود الحمر بتلك الفظائع التى ارتكبوها معهم ، وهى فظائع لانظير لها ، وسمتهم بميسم العار ، بل إنهم لم يستطيعوا حتى أن يجردوهم كل التجريد من حقوقهم التى لهم . أما أمريكيو الولايات المتحدة فقد حققوا هذا الغرض المزدوج بلباقة مدهشة حقاً ، وفى هدوء ، وعلى صورة قانونية بشكل عمل خيرى ، ومن غير إراقة دماء ، أو انتهاك لمبدأ واحد عظيم من مبادىء الإنسانية فى نظر العالم . فمن المستحيل أن يقضى على قوم مع احترام للقوانين الإنسانية بأكثر مما فعل الأمريكيون بالهنود الحمر .

مركز السكان السود فى الولايات المتحدة والأخطار التى تهدد الجنس الأبيض من جراء وجودهم فيها

لم كان إلغاء الرق ومحو كل آثاره أصعب عند المحدثين منه عند القدامى - يبدو أن تعصب البيض ضد السود فى الولايات المتحدة يزداد شدة كلما ألغى الرق - مركز الزنوج فى الولايات الشمالية وفى الولايات الجنوبية - لماذا يلغى الأمريكيون الرق - العبودية التى تحط من شأن الرقيق ، تؤدى إلى إفقار أسيادهم - موازنة بين ضفة نهر الأوهايو اليسرى وضفته اليمنى - سبب ذلك - تراجع كل من الجنس الأسود والرق نحو الجنوب ، تفسير هذه الحقيقة - الصعوبات التى تحيط بإلغاء الرق فى

الجنوب - الأخطار المقبلة - القلق العام - تأسيس مستعمرة سوداء فى أفريقيا - لم كان أمريكيو الجنوب يزيدون صعوبات الرقيق شدة على حين أن استمراره يضايقهم .

سيهلك الهنود - منبوذين منعزلين ، كما عاشوا منعزلين منبوذين ؛ ولكن مصير الزنوج مرتبط ، إلى حد ما ، بمصير الأوربيين . فهذان الجنسان مرتبطان بعضهما ببعض وإن لم يندمجا . وهما سواء فى عجزهما عن الاندماج التام ، وفى عجزهما عن الانفصال التام كذلك . فأسوأ الشرور التى تهدد مستقبل الاتحاد إنما تنشأ من وجود السود فى أراضيه ، فعندما يفكر المرء منا فى أسباب الارتباك الحالى ، أو فيما يهدد الولايات المتحدة من أخطار فى المستقبل ، ينتهى إلى أن هذه الحقيقة الأساسية .

وعلى الجملة يجب أن يبذل الناس جهوداً جبارة متصلة لا هوادة فيها ، ضد الشرور الدائمة ، قبل أن تنشأ وتستشرى . ولكن ثم نكبة كبرى قد تسللت خلسة إلى العالم ، والتى كان من الصعوبة بمكان تمييزها فى مبدأ الأمر وسط غيرها من المساوىء المألوفة لاستغلال السلطة . لقد بدأها فى الأصل إنسان لم يحفظ لنا التاريخ اسمه ، ثم انتشرت فى جزء من الأرض انتشار بعض الجراثيم اللعينة ، وجعلت تغذى نفسها بنفسها ، حتى نمت وتكاثرت فى غير مشقة ، وظلت تنتشر انتشاراً طبيعياً فى المجتمع الذى تنتمى إليه . هذه النكبة هى نكبة الرق . لقد قمعت المسيحية الرق ، ولكن مسيحيى القرن السادس أعادوه إلى الحياة استثناء من نظامهم الاجتماعى ، وقصروه على جنس واحد من أجناس البشر . بيد أن الجرح الذى أصاب الإنسانية من جرائه كان عسير البرء على الرغم من قلة اتساعه .

ومن الأهمية بمكان أن نميز تمام التمييز بين الرق نفسه ، وبين ما يترتب عليه من نتائج وآثار . فالشرور التى نشأت عن الرق مباشرة عند المحدثين تكاد تكون هى التى كانت فى الزمن القديم ، وإن اختلفت نتائجها . فقد كان العبيد عند القدامى من نفس الجنس الذى منه ساداتهم . وكثيراً ما كانوا أسمى منهم فعلاً من حيث التعليم ومن حيث الذكاء ، ولم يكن ما يميز السيد عن العبد سوى الحرية ، فإذا ما نال العبد حريته اختلط فى يسر وسهولة بمن كان سيده من قبل . حتى صار من الصعب تمييز أحدهما عن الآخر . وهكذا توفرت للقدامى وسيلة بسيطة للتخلص من الرق وما يترتب عليه من عواقب . وليست تلك الوسيلة غير العتق والتحرير ، وقد نجحوا فى ذلك عندما عمموا هذا الإجراء . ومع ذلك فقد ظلت آثار الرق ، فى الأمم القديمة باقية مدة من الزمن بعد إلغائه ، فثم تحيز طبيعى يدفع الناس إلى احتقار كل من كان دونهم ، حتى بعد أن صار ندهم المساوى لهم ، ومضى عليه وهو كذلك زمن طويل .

والتفاوت الحقيقى الذى يحدثه الحظ والثروة ، أو يحدثه القانون ، يعقبه دائماً تفاوت

وهى راسخ فى آداب الشعب وسلوكه . ولكن هذه النتيجة الثانوية من نتائج الرق كان لها حد طبيعى عند القدامى . فقد كان المعتق يشبه كل الشبه المواطنين المولودين أحراراً ، وسرعان ما يصبح من المستحيل تمييزه عن الأحرار .

كان تغيير القوانين أشد صعوبة واجهها الناس فى الأزمنة القديمة . أما بين المحدثين فأكبر صعوبة يواجهونها هى تغيير العرف والعادات . ومن حيث ما يهمنا هنا ، فإن العقبات الحقيقية تبدأ من حيث انتهت العقبات التى كانت فى سبيل الأقدمين . ويرجع هذا إلى ظرف معين . فحقيقة الرق المجردة العابرة تتصل اتصالاً وثيقاً بمسألة اللون ، وهى حقيقة طبيعية دائمة . فتقاليد الرق تسم الجنس الأسود بوصمة العار ، كما أن خاصية الجنس الأسود هذه تستديم تقاليد الرق . فلم يحدث قط أن رجلاً أفريقياً أسود هاجر من تلقاء نفسه إلى شواطىء الدنيا الجديدة ، ومن ثم كان جميع من فيها من السود عبيداً ، أو معتقين ، وبذلك صار الزنجى ينقل الوصمة العالقة به إلى الأبد إلى ذراريه جميعاً . فإن كان القانون قد ألغى الرق فالله وحده هو القادر على إزالة ما يترتب على هذا الرق من آثار .

لايختلف العبد فى عصرنا الحديث عن سيده ، من حيث وضعه فحسب ، بل يختلف عنه كذلك من حيث الأصل . فإنك قد تعتق العبد الزنجى وتحرره ولكنك لاتستطيع أن تجعله يبدو فى نظر الأوربيين أكثر من شخص أجنبى عنهم .

وليس هذا كل ما فى الأمر . فإنا لانكاد نعترف بوجود شىء من سمات الإنسانية العامة من هذا المخلوق الأجنبى الذى ولد فى الذل وجاء به الرق إلى البلاد الأوربية ؛ فملامحه مخيفة ومفزعة فى نظرهم ، وفهمه ضعيف ، وأذواقه وضيعة ، فلا غرو إن علُوه مخلوقاً وسطاً بين الناس والحيوان . فبعد أن ألغى المحدثون الرق ظلت فيهم أنواع ثلاثة من التعصب ، يناضلون عنها ، ولا يسهل مهاجمتها ، والتغلب عليها أشق جداً من التغلب على مجرد حقيقة الرق : وهذه هى تعصب السيد ، وتعصب الجنس لنفسه ، والتعصب ضد اللون .

فمن العسير علينا كل العسر ، نحن الذين كان من حسن حظنا أن ولدنا بين ظهرانى أناس جعلتهم الطبيعة من أمثالنا ، وجعلهم القانون مساوين لنا - من العسير علينا أن ندرك تلك الفروق الكبيرة التى يعز التوفيق بينها ، والتى تفصل الزنوج فى أمريكا عمن فيها من الأوربيين . ولكنا مع ذلك نستطيع أن نحصل على فكرة ضعيفة ، بطريق التشبيه والتمثيل . فقد كانت فرنسا من قبل بلاداً قامت فيها أنواع كثيرة من التفاوت ، خلقها القانون نفسه . فليس ثم شىء أكثر تعلقاً من قصور أو عجز يفرضه القانون وحده على الناس ، ولا شىء يتعارض مع الفطرة الإنسانية أكثر مما تتعارض معها هذه الفوارق الدائمة التى يقيمها القانون بين كائنات واحدة فى ظاهرها . ومع ذلك ، فقد ظلت هذه الفروق دهوراً طوالاً ، ولا تزال موجودة فى مواضع عدة . وقد خلفت فى كل مكان آثاراً وهمية لاتكاد

تمحوها يد الزمان . فإن كان استئصال التفاوت الذى نشأ بالقانون وحده ، أمراً صعباً إلى هذا الحد ، فكيف يتسنى لنا أن نقضى على تلك الفروق التى تبدو أنها قامت على أساس من القوانين الطبيعية ، وهى قوانين ثابتة لاتتبدل ؟ كلما تذكرت تلك الصعوبة الشديدة التى بها تختلط الهيئات الأرستقراطية ، على اختلاف أنواعها ، مع الشعب ، وحرص الأرستقراطيين البالغ فى المحافظة على حدود استبقاء طبقتهم قائمة دهوراً طوالاً دون أن يعتدى عليها أحد - كلما تذكرت ذلك استولى على اليأس من أن أرى أن أرستقراطية تقوم على أساس من سمات مرئية لاتمحى ، يمكن أن تزول . فأولئك الذى يأملون أن يأتى يوم يندمج فيه الأوربيون مع الزنوج ، هم فى نظرى إنما يخادعون أنفسهم . أما أنا فلم أصل إلى أية نتيجة من هذه النتائج ، سواء عن طريق العقل والاستدلال ، أو بدليل الحقائق الواقعة بذاتها . فحيث ظل الأوربيون أصحاب القوة والسلطان إلى الآن استبقوا الزنوج فى مراكز وضيعة ، أو فى الرق . أما حيث الزنوج هم أصحاب السلطان ، فقد عملوا على القضاء على البيض . هذا ، هو الميزان الوحيد الذى حدث بين الجنسين .

إن الحاجز القانونى الذى يفصل هذين الجنسين الواحد عن الآخر ، قد أخذ يزول الآن فى بعض أجزاء الولايات المتحدة ، أما الحاجز الذى يفصل بين الآداب الأخلاقية فمازال قائماً . فالرق آخذ فى التراجع ، على حين أن التعصب العنصرى الذى تولد عنه ثابت لايزول ، فلابد أن أدرك كل من سكن الولايات المتحدة أن الزنوج فى أجزاء الاتحاد التى لم يعودوا فيها أرقاء ، لم تقترب أحوالهم اقتراباً كبيراً من أحوال البيض . ونرى على النقيض من ذلك ، أن التعصب العنصرى أقوى فى الولايات التى ألغت الرق منه فى الولايات المتحدة التى مازال قائماً فيها ، ولا يوجد ولاية بلغ فيها هذا التعصب العنصرى ما بلغه فى الولايات التى لم تعرف الرق أبداً .

صحيح أن القانون فى الأجزاء الشمالية من الاتحاد يسمح بعقد الزواج الشرعى بين البيض والسود ، ولكن الرأى العام يسم كل رجل أبيض يعقد على زنجية ، بميسم العار ، ومن العسير ذكر مثال واحد لزواج من هذا القبيل . لقد منح الزنوج حق الانتخاب فى كل ولاية تقريباً من الولايات التى ألغى فيها الرق ، ولكن عندما يجىء الزنجى ليعطى صوته يجد حياته فى خطر ، وإن نزل به أى اضطهاد فله الحق فى أن يرفع ظلامته إلى القضاء ، ولكنه لايجد أمامه عندئذ سوى قضاة من البيض ، والقانون يبيح له أن يعمل محلفاً ولكن تعصب البيض يمنعه من ممارسة هذه الوظيفة ؛ وأبناء الزنوج لايقبلون مع أبناء البيض فى مدرسة واحدة ، وليس فى مقدور الزنجى أن يحصل بأى مبلغ من الذهب على مقعد فى مسرح فيجلس إلى جانب سيده السابق .

وفى المستشفيات نجد الجنسين منعزلين تماماً الواحد عن الآخر . إن للزنوج أن يعبدوا الإله نفسه الذى يعبده البيض ، ولكن على أن يكون ذلك فى محراب آخر مختلف ، وفى

كنائس الزنوج الخاصة حيث يقوم قسسهم الخاصون بخدمتهم الدينية ؛ فأبواب السماء ليست مغلقة فى وجوههم ، ولكن عدم المساواة يلازمهم حتى أبواب الآخرة . فإذا ما توفى الزنجى أقصيت رفاته ؛ فالتفاوت فى الأحوال يظل قائماً حتى فى الموت . وهكذا نجد الزنجى حراً طليقاً ، ولكنه لا يستطيع أن يمارس حقوق الرجل الأبيض ولا يستمتع بمثل مسراته وأعماله ، حتى ولا آلامه ، بل ولا الموت نفسه ، ذلك الذى قيل فيه أنه يسوى بين الجميع . فهو لا يستطيع أن يلتقى مع الرجل الأبيض على قدم المساواة ، لا فى الحياة ولا فى الممات .

ففى الجنوب حيث لا يزال الرق قائماً ، لا ينبذ البيض الزنوج ويقصونهم عنهم هذا الإقصاء الشديد ، بل إنهم ليشركونهم فى بعض الأحيان فى الأعمال التى يقومون (البيض) بها ، وفى مسراتهم وملاهيهم ، ويختلطون بهم إلى حد ما ، فإن كان التشريع فى الجنوب قاسياً على الزنوج كل القسوة ، فالعادات فيه أرفق بهم وأكثر تسامحاً معهم . ففى الجنوب لا يخشى السيد أن يرفع عبداً له إلى مستواه ، لأنه واثق من أن فى استطاعته أن يذله متى شاء ويضع أنفه فى الرغام . أما فى الشمال فلم يعد الرجل الأبيض يدرك بشكل واضح ذلك الحاجز الذى يفصله عن الجنس الممقوت ، فهو يحرص كل الحرص على أن يتحاشى الزنوج خشية أن يأتى عليهم يوم يختلطون فيه اختلاطاً كبيراً بجنسه هو نفسه .

تؤكد الطبيعة أحياناً حقها بين أمريكيى الجنوب ، فتقيم بين البيض والسود مساواة عابرة . أما فى الشمال فإن الكبرياء قد تكف أكثر الأهواء الإنسانية قوة وسلطاناً ، فقد يقبل الأمريكى الشمالى أن يتخذ له من الزنجية متعة عابرة فى ملذاته ، إن كان القانون يمنعه من اتخاذها زوجة شرعية له تشاركه فراشه ، ومع ذلك فإنه ينكص فزعاً منها إذا جاز أن تكون له زوجاً شرعية .

إن التعصب الذى جعل البيض فى الولايات المتحدة ينفرون كل النفور من الزنوج ، ليزداد كلما تحرر السود وأصبحوا عتقاء ؛ وكذلك يزداد ما بينهما من تفاوت فى العادات الأخلاقية ، كلما منع القانون نفسه هذا التفاوت . ولكن إن كان الموقف النسبى للجنسين اللذين يقطنان الولايات المتحدة كما وصفت توا ، فلماذا ألغى الأمريكيون الرق فى شمال الاتحاد ؟ وما الذى دعاهم إلى الاحتفاظ به فى جنوبه ؟ وإلى زيادته قسوة على قسوته ؟ ليس ثمة صعوبة فى الإجابة على هذا السؤال . فلم يكن إلغاء الرق فى الولايات المتحدة لمصلحة الزنوج ، بل كان لمصلحة البيض أنفسهم .

لما جيء بالزنوج إلى أمريكا لأول مرة فى سنة ١٦٢١ أنزلوا فى فرجينيا ، وبذلك يكون نظام الرق فى أمريكا قد نشأ أول ما نشأ فى الجنوب ، كما نشأ فى غيرها من أجزاء العالم ، ثم جعل ينتشر من مكان إلى آخر ، ولكن عدد الأرقاء كان يتناقص كلما اتجهنا إلى الولايات الشمالية . هكذا ، وكان عدد الزنوج محدوداً دائماً فى ولايات نيوإنجلند .

ولم يكد يمضى قرن من الزمان على تأسيس المستعمرات حتى استبانت لأصحاب المزارع ، فى دهشة بالغة ، حقيقة لم تكن معهودة لهم من قبل . وهى أن المديريات التى كانت خالية من العبيد نسبياً ، ازداد سكانها عدداً ، وثروة ، وسعادة بأسرع مما ازداد سكان الولايات التى بها عدد كبير من العبيد . ومع ذلك كان السكان فى الأولى مضطرين إلى القيام بزراعة أراضيهم بأنفسهم ، أو بواسطة عمال مأجورين ، أما سكان المديريات الثانية فكان تحت تصرفهم أيد عاملة كثيرة لا يدفعون لها نظير عملها أجراً . وهكذا كان الشغل والنفقات فى جانب ، والكسل والاقتصاد فى الجانب الآخر . ومع ذلك كان الجانب الأول خير النظامين ، وأفيدهما . وقد تبين للناس أن ليس من الهين تفسير هذه النتيجة ، فجميع السكان من جنس أوربى واحد ، وعاداتهم واحدة ، وحضارتهم واحدة وقوانينهم كذلك واحدة ، والفروق التى بينهم ضئيلة كل الضآلة .

ودار الزمان دوراته مع ذلك ، وانتشر الأمريكيون الإنجليز من شواطىء المحيط الأطلسى ، وتغلغلوا باستمرار فى مجاهل الغرب حيث وجدوا فيه أراضى جديدة وأنواعاً من المناخ لا عهد لهم بها ؛ فعليهم أن يتغلبوا على أنواع شتى من العقبات صادفتهم فى طريقهم ، واختلطت أجناسهم بعضها ببعض ؛ فسكان الجنوب اتجهوا نحو الشمال ، وانحدر أهل الشمال إلى الجنوب . ففى وسط هذه الأسباب جميعها كانت النتيجة نفسها تتجلى لهم فى كل خطوة يخطونها . فعلى الجملة ، كان عدد السكان فى المستعمرة التى لا عبيد فيها ، يزداد عدداً ورخاء أكثر منه فى المستعمرات التى استكثرت من استخدام العبيد . وكلما أبعد الإنسان ، اتضح له فى جلاء أن الرق القاسى كل القسوة على العبيد ، مضر كذلك بسادة العبيد أنفسهم .

وقد لقيت هذه الظاهرة الدليل الحاسم على صحتها ، عندما بلغ الأمريكيون ضفاف نهر الأوهايو ، ذلك النهر الذى أسماه الهنود بهذا الاسم ، تعبيراً عن رأيهم فيه - فمعنى الأوهايو : النهر الجميل . فهو يروى وادياً خصيباً من أمرع الأودية التى اختار الإنسان أن ينزلها ويتخذ له فيها مسكناً ؛ فعلى ضفتى هذا النهر تمتد أراض متاوجة تقدم تربتها للفلاح كل يوم كنوزاً لا تنفد ، والجو صحى على ضفتى النهر كلتيهما ، والمناخ معتدل ، وكل ضفة منهما لولاية عظيمة ؛ فالولاية التى على الضفة اليسرى تتبع حدودها تثنيات النهر العديدة ، وتسمى كنتكى . أما الولاية الأخرى ، وقد استعارت اسمها من النهر ذاته ، الأوهايو ، ولا تختلف الولايتان بعضهما عن بعض إلا فى نقطة واحدة ، فولاية « كنتكى » رضيت بوجود الأرقاء فى بلادها ، على حين رفضت ولاية « أوهايو » قبولهم فى أراضيها رفضاً قاطعاً . وعلى هذا ، فالسائح الذى تصادف وكان فى سفينته وسط هذا النهر ، ينساق مع التيار حتى يلتقى الأوهايو بنهر المسيسبى - هذا السائح يدرك أنه قد سار إذن بين الحرية والاسترقاق ، وما عليه إلا أن يلقى نظرة على ما حوله ليدرك فى الحال أى النظامين أصلح لبنى الإنسان .

فعند ضفة النهر اليسرى تجد السكان قليلين ومبعثرين، وترى من حين إلى حين، طائفة من العبيد يتسكعون فى غير اكتراث فى الحقول التى تكاد تكون مقفرة، وتعود الغابات البدائية إلى الظهور باستمرار فى كل مكان. فكأن المجتمع كله فى غفوة، والإنسان خامل كسلان، على حين تبدو الطبيعة وحدها مسرحاً لنشاط الحياة.

وتسمع، على النقيض من ذلك، فى الضفة اليمنى من النهر نفسه ضوضاء مختلطة تعلن للناس من مسافات بعيدة وجود الصناعة - وترى الحقول حافلة بما يبشر بغلات وفيرة، وتتكشف المساكن عن حسن ذوق العمال وعن نشاطهم الجم. ففى كل ناحية من النواحى تجد الرخاء والخير موفورين، ويبدو لك الإنسان ثرياً هنىء البال ولاغرو فى ذلك فهذا جزاء العمل.

تأسست ولاية كنتكى سنة ١٧٧٥، وتلتها ولاية أوهايو بعد ما لايزيد على اثنتى عشرة سنة، ولكن اثنتى عشرة سنة فى أمريكا تعادل أكثر من نصف قرن فى أوربا. فعدد سكان ولاية أوهايو اليوم يزيد على سكان كنتكى بربع مليون من النفوس. ومن السهل إدراك النتائج المختلفة التى تترتب على كل من الرق والحرية، وتكفى لبيان ما نلحظه من فروق بين حضارة الأقدمين وبين حضارتنا فى الوقت الحاضر.

وعلى ضفة نهر الأوهايو اليسرى يختلط العمل بفكرة الرق، على حين أنه على الضفة اليمنى يقترن بفكرتى الرخاء والتقدم. ففى جانب العمل منحط وفى آخر موضع تمجيد وتكريم، فأنت لاتجد فى الإقليم الأول عمالاً بيض البشرة لأنهم يخشون أن يكونوا مثل الزنوج. فكل الشغل يقوم به العبيد.

أما فى الإقليم الثانى، فلا تصادف أحداً كسلان؛ فنشاط البيض وذكاؤهم يتجليان فى كل نوع من أنواع العمل. فالرجال الذين عليهم أن يزرعوا أراضى كنتكى الغنية جهلاء جامدو الحس، على حين أن النشيطين المستنيرين لايعملون شيئاً، أو ينتقلون إلى أوهايو، حيث يستطيعون أن يعملوا فى غير استحياء.

حقاً إن المزارعين فى كنتكى ليسوا مضطرين إلى دفع أجور للعبيد الذين يستخدمونهم فى الزراعة، ولكنهم لايجنون من عملهم سوى أرباح ضئيلة، على حين أن الأجور التى تدفع للعمال الأحرار ترد إلى المزارع مع أرباحها فى قيمة ما يؤدونه من أعمال وخدمات. فالعامل الحر يعمل بأجر ولكنه يؤدى عمله بأسرع مما يؤديه العبد الرقيق. وسرعة الإنجاز، كما لايخفى هى عنصر من أهم عناصر الاقتصاد. فالرجل الأبيض يبيع خدماته ولكنها لاتشترى إلا إذا كانت خدمات نافعة حقاً. أما الرجل الأسود فلا يستطيع أن يطلب أجراً على ما يعمل، ولكن نفقات قوته والمحافظة عليه دائمة مستمرة. فهو يجب أن يعال فى شيخوخته، كما يعال فى كهولته، وكذلك يعال فى طفولته التى لاربح من ورائها، كما يعال فى أيام شبابه المنتجة، ويعال فى مرضه وفى صحته. ومع ذلك

فلا مناص من تحمل نفقات ذلك للحصول على خدمات أى الطبقتين من الرجال : العبيد والأحرار . فالعامل الحر يتسلم أجره نقداً ، أما العبد فيتسلمه تعليماً وملبساً ورعاية . والنقود التى ينفقها السيد على كفالة أرقائه تنفق تدريجياً وتفصيلاً فلا تكاد تحس ، على حين أن مرتب العامل من الأحرار مبلغ طيب يدفع جملة ، ويبدو أنه لايغنى إلا من يتسلمه . ولكن الرقيق يكون قد كلف سيده فى النهاية أكثر مما يكلفه الخادم الحر ، فضلاً عن أن عمله أقل إنتاجاً .

هذا ، وقد امتد تأثير الرق إلى أبعد من ذلك مدى . فقد بلغ به الأمر أن أثر فى أخلاق السادة ملاك الرقيق أنفسهم ، فطبع آراءهم وأذواقهم بطابع واحد معين . فقد وهبت الطبيعة السكان الذين يقيمون على ضفتى نهر الأوهايو ميلا إلى الجد والنشاط والمغامرة ، إلا أن استخدام هذا الميل العام فيهم كان يختلف فى سكان كل ضفة عن الأخرى . فالرجل الأبيض الساكن على الضفة اليمنى من النهر مضطر إلى أن يعمل ليعيش من كدحه وعرق جبينه ؛ فهو يعد السعادة فى هذه الدنيا الغرض المقصود من وجوده فيها . ولما كان الإقليم الذى يعيش فيه يتيح لمجال نشاطه موارد لاتغيض ودواعى شتى تستثيره باستمرار ، صار تحمسه للمكاسب واقتناء الأموال يفوق حدود الطمع البشرى المعهودة . ولما كانت الرغبة فى الغنى مصدر قلقه وأصل عذابه ، صار يسلك فى جرأة وإقدام كل طريق يوجهه الحظ إليه ، فليس يهمه أن يكون ملاحاً أو رائداً أو صانعاً أو مزارعاً ، ويتحمل فى صبر وثبات متاعب الأعمال ، ومشاق الأخطار التى قد يتعرض لها صاحب كل مهنة من هذه المهن المختلفة . وكان ما يبديه من الذكاء وسعة الحيلة فى ذلك كله ليستدعى العجب ويستثير الدهشة حقاً ، حتى إنك لتلمس فى سعيه وراء اجتناء المكاسب نوعاً من أنواع البطولة .

أما أهالى كنتكى القاطنون على الضفة اليسرى من النهر فلايحتقرون العمل فحسب ، بل يحتقرون معه كل مايؤدى العمل إلى النجاح فيه .

فكما أن الكنتكى يعيش فى دعة وخمول - من جراء اعتماده على سواه - صارت أذواقه أذواق الكسالى من الناس ؛ فهو يسعى وراء مرحه ومسراته أكثر مما يسعى وراء جمع الثروة وكسب المال ، فكأن النقود قد فقدت جزءاً كبيراً من قيمتها فى نظره . فالهمة التى يوجهها جاره إلى اجتناء المكاسب ينفقها هو فى الطراد ، والتدرب على الحروب ، فيُعنى بممارسة التمرينات البدنية العنيفة ، ويحسن استعمال السلاح ، فقد تعود من سن مبكرة أن يعرض حياته للأخطار فى المبارزة ، والمعارك الفردية . وهكذا ترى أن الرق لايمنع البيض من أن يثروا فحسب ، بل إنه يمنعهم حتى من الرغبة فى أن يكونوا أثرياء .

ولما كانت الأسباب نفسها تعمل فى اتجاهين متضادين طيلة القرنين الماضيين

فى المستعمرات الإنجليزية التى فى أمريكا الشمالية ، فقد أدى ذلك إلى حدوث بون شاسع بين قدرة الإنسان التجارية فى الشمال ، وقدرته فى الجنوب . فليس غير الشمال اليوم يملك السفن والمصانع والسكك الحديدية والترع . وهذا الفرق مشاهد محسوس ، لا فى المقارنة بين الشمال والجنوب فحسب ، بل وعند مقارنة أهالى الجنوب أنفسهم بعضهم ببعض . فالناس الذين يقومون بعمليات تجارية ، ويحاولون أن يفيدوا أكبر فائدة من عمل الرقيق ، فى أقرب ولايات الاتحاد للجنوب ، كانوا كلهم أو أكثرهم ممن هاجروا إليها من الشمال . فأهالى الولايات الشمالية ينتشرون باستمرار فى ذلك الجزء من البلاد الأمريكية حيث لا يخشون على أنفسهم شيئاً من جراء المنافسة . فهم يستكشفون موارد جديدة فات السكان أن يقفوا عليها . ولما كانوا مضطرين إلى اتباع نظام لا يوافقون عليه فقد نجحوا فى أن يعملوا على أن يفيدوا منه أكثر ممن أسسوه ، ولا زالوا يصونونه ويحافظون عليه .

فلو أنى أردت الاستمرار فى عقد هذه المقارنة لاستطعت أن أبرهن فى يسر على أن جل الفروق التى تلاحظ بين أخلاق الأمريكيين الذين فى الولايات الشمالية وإخوانهم الذين فى الولايات الجنوبية قد نشأت بسبب وجود هذا الفرق ، لولا أن هذا الاستمرار فى المقارنة قد يصرفنى عن موضوعى الأصلى . ولست أقصد هنا أن أسرد كل النتائج التى ترتبت على وجود الرق ، بل أقصد بيان ما له من تأثير فى الرخاء المادى فى البلاد التى سمحت بوجوده فيها .

ولابد أن كان تأثير الرق فى الإنتاج معروفاً بشكل ناقص وقاصر كل القصور فى العصور القديمة ، فقد كان آنئذ منتشراً فى بلاد العالم المتحضر كلها ، أما البلاد التى لم تعرفه فكانت بلاداً همجية .

والحق أن المسيحية لم تقض على الرق إلا بالدفاع عن حقوق الأرقاء . ومن الميسور فى الوقت الحاضر أن نهاجم الرق باسم السادة ملاك الرقيق ، وهنا تلتقى المصلحة والأخلاق .

فلما تكشفت هذه الحقائق لسكان الولايات المتحدة كان الرق قد أخذ يتراجع أمام ازدياد الخبرة وتقدمها . لقد بدأ فى الجنوب ، ومن الجنوب أخذ ينتشر إلى الشمال ، ولكنه عاد الآن يتراجع من جديد . لقد بدأت الحرية فى الشمال ، وظلت تمتد باستمرار نحو الجنوب . وتشكل بنسلفانيا الآن الحد الأقصى للرق فى ولايات الشمال ، ولكن الرق قد تضعضع حتى فى نطاق هذه الحدود ذاتها . ففى ولاية ماريلاند ، وتقع أسفل بنسلفانيا مباشرة ، يعمل الناس على إلغائه ، وفى فرجينيا الملاصقة لماريلاند يتناقشون فى الرق وما يجره من أضرار .

لا يمكن أن يحدث تغيير كبير فى المؤسسات البشرية دون أن يكون قانون الوراثة سبباً من أسبابه . فلما قام القانون الذى يقضى بتوريث الابن الأكبر وحده فى الجنوب ، لم يكن

يمثل كل أسرة فيه سوى فرد واحد ثرى غير مضطر للعمل ليعيش ، ولا هو يجد ما يدعوه إليه . وكان سائر أعضاء الأسرة الذين قضى القانون بحرمانهم من الاشتراك فى الميراث يحيطون بأخيهم الأكبر ، ويعيشون معه العيشة نفسها . فقد أضحوا عالة عليه يعيشون كالنبات الطفيلى على غيرهم . هذا وقد حدث الشىء نفسه فى الأسر القاطنة فى الجنوب كلها ، ومازال يحدث فى أسر النبلاء فى بعض الأقطار فى أوربا . وذلك أن الأبناء الصغار يظلون ميالين إلى حياة الدعة والكسل التى يحياها أخوهم الأكبر ، من غير أن يكون لديهم مايشبه ثروته فى شىء . ويبدو أن أسباب هذه النتيجة فى أوربا وفى أمريكا متشابهة . فقد كوَّن جميع البيض الذين فى جنوب الولايات المتحدة هيئة أرستقراطية على رأسها عدد معين من الأفراد ذوى الثراء الواسع الدائم والفراغ المتوارث . لقد ظل زعماء البلاد الأمريكيون هؤلاء يستمسكون فى الهيئة التى يمثلونها ، بالتقاليد التى يتعصب لها الجنس الأبيض ، ويمجدون الكسل ؛ وكانت هذه الأرستقراطية تضم فقراء كثيرين ليس منهم من يميل إلى الاشتغال بشىء ما . فأعضاؤها يفضلون الفقر على الشغل . فلا غرو أن كان الزنوج لايجدون فيها منافساً ، فمهما اختلفت الآراء فى قيمة ما يؤديه الزنوج هؤلاء من الأعمال فلامناص من استخدامهم إذ ليس ثمة من يعمل غيرهم .

فما أن ألغى قانون الوراثة (وهو ذلك القانون الذى يقضى بتوريث الابن الأكبر وحده) حتى أخذت الثروات تتناقص ، وهبطت جميع الأسرات فى الولايات المتحدة كلها فى وقت واحد إلى الحالة التى تقتضى المرء أن يعمل ليعيش . وما زلنا نرى اليوم أغنياء ، ولكنهم لم يعودوا يكونون هيئة وراثية متضامنة الصفوف ، ولم يستطيعوا أن يتخذوا لهم خطة معينة للسلوك يثابرون عليها ويبثونها فى كل طبقات المجتمع . فأولاً اتفق الناس فيما بينهم اتفاقاً عاماً على ترك ذلك التعثر الذى وصم العمل بوصمة العار ، فازداد عدد الفقراء المحتاجين ، ورخص لهم أن يكسبوا رزقهم بعرق جبينهم دون أن يتولاهم أى خجل من أنهم يعملون ، وعلى هذا كان من أهم النتائج المباشرة التى ترتبت على تقسيم الضياع بالتساوى ، خلق طبقة من العمال الأحرار - وما إن قامت المنافسة بينهم وبين العبيد حتى استبان للناس قصور عمل العبيد عن عمل الأحرار ، وعندئذ يأخذ الناس فى أن يهاجموا الرق فى صميم مبدئه الأساسى الذى قام عليه ، وهو مصلحة السيد المالك نفسه .

وكلما تقلص الرق أخذ الزنوج يعودون أدراجهم ، واتجه الرق معهم شطر الأقاليم المدارية حيث نشأ أصلاً . ومهما بدت لنا هذه الحقيقة عجيبة لأول وهلة ، فمن السهل تفسيرها . ذلك أن الأمريكيين وإن ألغوا مبدأ الرق ، فإنهم لم يحرروا العبيد . وحسبى شرحاً لهذه المسألة أن أمثل لها بولاية نيويورك التى قررت فى سنة ١٧٨٨ منع بيع الرقيق فى نطاق حدودها ، وهى طريقة غير مباشرة لتحريم استيراد العبيد . ومن ثم لم يعد عدد الزنوج يزداد إلا بنسبة ازدياد السكان الطبيعية ولكن بعد مضى ثمانية أعوام اتخذت

تلك الولاية خطوة أخرى أكثر حسماً ، فقررت أن يكون أبناء الأرقاء الذين يولدون فيها بعد الرابع من يولية سنة ١٧٩٩ أحراراً ، وبذلك لايتسنى أن تحدث أية زيادة فى عددهم . ومع أن الأرقاء ظلوا موجودين ، فإنا لانكون بعيدين عن الصواب لو قلنا إن الرق نفسه قد ألغى .

فعندما تلغى إحدى الولايات الشمالية استيراد الرقيق على هذا النحو ، لم يعد فيها محل لجلب الرقيق من الجنوب ليباع فى أسواقها . ومن جهة أخرى فإلغاء بيع الرقيق فى هذه الولاية يجعل مالكهم عاجزاً عن التخلص منهم (فقد صاروا بذلك كلاً ثقيلاً عليه) إلا بنقلهم إلى الجنوب - ولكن عندما تعلن ولاية من ولايات الشمال أن ابن العبد يولد حراً - فإن سعر العبد يهبط هبوطاً كبيراً فى السوق ، لأن ذريته لم تعد ضمن الصفقة ، وعندئذ يكون من مصلحة المالك أن ينقله إلى الجنوب . وهكذا صار القانون نفسه الذى يحرم على عبيد الجنوب أن ينتقلوا إلى الشمال يدفع عبيد الشمال إلى الانتقال إلى الجنوب .

ولكن ثمة سبب آخر أوجه من كل سبب ذكرناه من قبل . لقد صارت الحاجة إلى العمال الأحرار تشتد بتناقص عدد العبيد فى الولاية . كلما صار العمل يجرى بأيدى العمال الأحرار .. قل إنتاج العبيد ، وأصبح العبد ملكاً عديم القيمة لصاحبه ، أو عبئاً عليه . فمن مصلحة المالك إذن أن يصدره إلى الجنوب حيث لايخشى شيئاً من جراء المنافسة عينها . وعندئذ استبان للناس أن إلغاء الرق لم يحرر العبيد ، وإنما اقتصر على نقلهم من يدى سيد إلى يدى آخر ، ومن الشمال إلى الجنوب .

وفى الحق لم يهاجر الزنوج العتقاء ، والذين ولدوا من أبوين زنجيين ، بعد إلغاء الرق ، من الشمال إلى الجنوب .. ولكن مركزهم إزاء الأوربيين لم يعد يختلف كثيراً عن مركز الهنود . فقد ظلوا شبه متحضرين محرومين من حقوقهم وسط عدد كبير من السكان يفوقونهم من حيث الثروة والعلم ، ومعرضين لظلم القانون ولتعصب الأهالى العنصرى . هذا ، ومن نواح أخرى ساءت حالتهم حتى أصبحت أسوأ من حال الهنود ، وأدعى منها للرثاء . فقد ظلت ذكرى عبوديتهم تطاردهم ، فضلا عن أنهم لايستطيعون أن يطالبوا بملكية شيء من الأراضى .. فهلك الكثيرون منهم شر هلكة ، وتجمع الباقون فى العواصم يقومون بأداء أحط الأعمال ، ويحيون حياة كلها بؤس وقلق .

فإن ظل عدد الزنوج يزداد مع ذلك بنفس النسبة التى كان يزداد بها فى العهود التى لم يكونوا قد حصلوا فيها على حريتهم بعد ، فإنهم ، مع ازدياد عدد البيض بسرعة متضاعفة ، بعد إلغاء الرق ، سرعان مايضيعون وسط شعب أجنبى عنهم .

إن عدد سكان الإقليم الذى يزرع بأيدى العبيد أقل عادة من عددهم فى الإقليم الذى يعمل فى زراعته عمال من الأحرار .. وزيادة على ذلك فإن أمريكا لاتزال بلاداً جديدة ، فلا غرو أن كانت الولاية تعد نصف مأهولة عندما يلغى الرق فيها . وما إن يلغى حتى تمس الحاجة إلى العمال الأحرار ، وسرعان مايفد من كل أرجاء البلاد جماعات من

المغامرين الجريئين ليستفيدوا من الموارد الجديدة التى انفتحت للعمل والصناعة . وما أسرع ما تقسم الأراضى بينهم ، وتنال كل أسرة من أسر البيض نصيبها منها . وفضلاً عن ذلك فإن هجرة الأوربيين إلى البلاد تتجه إلى الولايات الحرة ، فماذا يستطيع المهاجر الفقير أن يعمل بعد أن عبر المحيط الأطلسى سعياً وراء الراحة والسعادة إذا ما نزل بلاداً يوسم فيها العمل بميسم العار والذلة ؟

وهكذا يزداد عدد السكان البيض زيادة طبيعية ، فضلاً عن ازدياده من جراء كثرة حشود المهاجرين الذين يتدفقون على البلاد ، على حين لم يزد عدد السكان السود شيئاً من جراء الهجرة ، بل أخذ يتناقص ؛ وسرعان ما انقلبت النسبة التى كانت بين الجنسين . فيصبح الزنوج بقية ضئيلة بائسة مجرد قبيلة من الرحل المساكين ضاعت بين شعب ضخم العدد يملك الأراضى حتى لم يعد أحد يحس بوجود السكان السود إلا من جراء الظلم الواقع عليهم والمتاعب الشاقة التى يعانونها .

هذا ، ولم يظهر الجنس الزنجى قط فى عدد من الولايات الغربية ، وكان عدد السود يتناقص بسرعة فى جميع الولايات الشمالية ، وبذلك صارت مشكلة أحوال مستقبلهم الكبرى محصورة فى نطاق ضيق حيث تصبح فيه أقل خطورة ، وإن لم تصبح بذلك أيسر حلا . وكلما نزلنا جنوباً تعسر إلغاء الرق إلغاء تكون من ورائه الفائدة . ومرد ذلك إلى عدة أسباب جغرافية ، من الخير أن نثبتها هنا .

فأول هذه الأسباب المناخ . فمن المعروف كل المعرفة أنه كلما اقترب الأوربيون من المدارين شق عليهم العمل وأرهقهم ، ويؤكد لنا كثيرون من الأمريكيين أن العمل فى حدود خطوط عرض معينة يكون قاتلاً للأمريكيين الذين يعملون فيها ، على حين يستطيع الزنوج أن يعملوا فيها آمنين من أى خطر يصيبهم ، ولكن الخبرة لا تؤيد هذا الرأى ، فهو فى مصلحة سكان الجنوب وحملهم . فليست أجزاء الاتحاد الجنوبية بأشد حرارة من جنوب كل من إيطاليا وإسبانيا . ولعل سائلاً يسأل عن السبب الذى دعا الأوربيين ألا يحسنوا العمل هناك ، بقدر ما يحسنونه فى هذين البلدين الأخيرين . فإن كان الرق قد ألغى من إيطاليا ومن إسبانيا من غير أن يؤدى إلى هلاك السادة أصحاب العبيد ، فما الذى يمنع الشىء نفسه من أن يحدث فى الاتحاد ؟ إنى لا أصدق أن الطبيعة قد منعت الأوربيين فى جورجيا ، وفلوريدا من أن يعملوا على استنبات مواد قوتهم بالعمل فى فلاحة الأرض ، وإلا هلكوا . ولكن ليس من شك فى أن عملهم هنا أشد إرهاقاً لهم وأقل إنتاجاً مما هو لسكان نيوإنجلند . فإذا كان العامل الحر يفقد شيئاً من تفوقه على العبد فى الولايات الجنوبية فثم دواع أقل إذن من تلك التى تحمل الناس على إلغاء الرق .

تنمو جميع نباتات أوربا فى الأجزاء الشمالية من الولايات المتحدة . أما الجنوب فغلاته أخرى خاصة به . وقد لاحظ الناس أن تشغيل العبيد طريقة كثيرة التكاليف فى زراعة

الحبوب . فالمزارع الذى يزرع الغلال فى بلد لاتعرف الرقيق لايستبقى فى خدمته من العمال عادة سوى عدد قليل ، ويستأجر عدداً إضافياً منهم فى موسمى البذار ، والحصاد ؛ وهؤلاء لايعيشون عنده ، وعلى نفقته ، سوى مدة قصيرة . أما المزارع فى الولاية التى تستخدم الرقيق ، فمضطر إلى الاحتفاظ بعدد كبير منهم طول السنة لزرع حقوله وجنى غلاته ، على الرغم من أنه قد لايحتاج إلى خدماتهم إلا بضعة أسابيع ، لأن العبيد لايستطيعون أن ينتظروا حتى يجدوا من يستأجرهم ويعيشون فى الوقت نفسه بعرق جبينهم ، كما يعيش العمال الأحرار . فللحصول على خدماتهم يجب أن يشتروا شراء . فالرق فضلاً عن مساوئه العامة ، لايصلح فى بلاد تزرع الحبوب ؛ وعدم صلاحيته فى هذه البلاد أكثر منها فى البلاد الأخرى التى تنتج محصولات من نوع آخر . فزراعة الدخان ، والقطن ولاسيما قصب السكر ، تتطلب من جهة أخرى ، عناية متصلة ، ويستخدم فيها النساء والأطفال ، وإن كانت خدماتهم قليلة الجدوى فى زراعة الغلال . وهكذا يتبين لنا أن الرق أنسب بالبلاد التى تستمد منها هذه الغلات .

فالدخان والقطن وقصب السكر لاتزرع إلا فى الجنوب وحده ، وهى المصادر الأساسية لثروة هذه الولايات . فإذا ما ألغى الرق اضطر سكان الجنوب إلى أحد أمرين اثنين : إما أن يغيروا نظامهم الزراعى ، وعندئذ يضطرون إلى منافسة سكان الشمال الذين هم أكثر منهم نشاطاً وأوسع خبرة ، وإما أن يستمروا يزرعون نفس الغلات من غير أن يستخدموا العمال العبيد ، وعندئذ يكون عليهم أن يتحملوا منافسة الولايات الجنوبية الأخرى التى قد تحتفظ بما لديها من العبيد ، وهكذا تكون ثم أسباب خاصة لاستمساك الجنوب بالرق ، وهى أسباب لاتؤثر فى الشمال .

ولكن ثمة سبب آخر أوجه من كل ما ذكرت وأقوى : فقد يستطيع الجنوب أن يلغى الرق ، ولكن ما السبيل إلى تخليص بلاده من سكانها السود ؟ إن الرق والعبيد يمكن أن يطردوا من ولايات الشمال بقانون واحد ، ولكن لاأمل فى تحقيق هذه النتيجة المزدوجة فى الجنوب .

وعندما برهنت أن الرق طبيعى فى الجنوب وأنفع فيه ، منه فى الشمال ، أوضحت أن عدد العبيد لابد أن يكون أكبر جداً فيه عنه فى الشمال . فأول ماجىء بالزنوج جىء بهم إلى الجنوب ، وإلى الجنوب كانت تستورد دائماً أكبر كمية منهم . وكلما نزلنا جنوباً ازداد التحيز الذى يؤيد الكسل . ففى أقرب الولايات إلى المدارين لايوجد عامل أبيض واحد ، ومن ثم كان العبيد أكثر عدداً فى الجنوب منهم فى الشمال . ويزداد هذا التفاوت فى النسبة ، كل يوم عن سابقه كما أشرنا من قبل ، لأن العبيد ينقلون من الجزء الذى ألغى فيه الرق إلى جزء آخر من أجزاء الاتحاد . وهكذا يتزايد عدد السكان السود فى الجنوب ، لامن جراء تكاثرهم الطبيعى ، ولكن بسبب هجرة السود الاضطرارية من الشمال .

إلى الجنوب. هذا، وللجنس الأسود أسباب للزيادة فى الجنوب شبيهة كل الشبه بالأسباب التى تدعو إلى تزايد الجنس الأوربى فى الشمال.

فليس فى ولاية (مين) سوى زنجى واحد من كل ثلاثمائة ساكن، وفى مساتشوستس واحد من كل مائة، وفى نيويورك اثنين من كل مائة، وفى بنسلفانيا ثلاثة، على حين يوجد فى ماريلاند أربعة وثلاثون، وفى فرجينيا اثنان وأربعون. وأخيراً يوجد منهم فى كارولينا الجنوبية خمسة وخمسون فى كل مائة من السكان. تلك هى نسبة السكان السود إلى البيض فى سنة ١٨٤٠ ولكنها فى تغير مستمر، فتتناقص باستمرار فى الشمال وتزداد فى الجنوب.

ولا يخفى أن أقرب ولايات الاتحاد إلى الجنوب لا تستطيع أن تلغى الرق من غير أن تتعرض لأخطار جسام، ليس لدى الشمال ما يدعوه أن يخشاها إذا هو حرر من عنده من العبيد. فقد سبق أن أشرت إلى الطريقة التى يسرت بها الولايات الشمالية الانتقال من الرق إلى الحرية. وذلك بأن استبقت الجيل الحاضر فى أغلاله وحررت ذريته. فبهذه الوسيلة صار الزنوج لا يندمجون فى المجتمع إلا تدريجياً. فعلى حين أن من يحتمل أن يسيئوا استخدام حريتهم قد استبقوا فى رقهم، أما من تحرروا فيستطيعون أن يتعلموا فن أن يكونوا أحراراً قبل أن تصبح أمورهم فى أيديهم. ولكن تطبيق هذه الطريقة فى الشمال، دونه مصاعب جمة، فإعلان أن جميع السود المولودين بعد فترة معينة، يكونون أحراراً معناه إدخال مبدأ الحرية وفكرتها فى صميم الرق. فالسود الذين يقرر القانون استبقاءهم فى حالة الرق التى استنقذ منها أبناءهم يندهشون من مثل هذا المصير المتفاوت، وليست دهشتهم هذه سوى مقدمة تؤدى إلى جزعهم وحنقهم. ومن ذلك الوقت فقد الرق فى نظرهم تلك القوة الأدبية التى اكتسبها بمرور الزمن، وطول العادة؛ فقد هبط إلى مجرد سوء استخدام محسوس للقوة، وليس للولايات الشمالية شىء تخشاه من هذه المقابلة؛ فالسود عندهم قليلو العدد، على حين أن عدد السكان البيض كبير طاغ. فإن كان فجر الحرية لإسرائيل، هذا، سيؤدى إلى إطلاع مليونين من الناس على وضعهم الحقيقى لكان للظالمين أحق فى أن يرتعدوا فرقاً؛ فالأوربيون الذين فى الولايات الجنوبية سيضطرون بعد أن حرروا أطفال أرقائهم أن يمنحوا هذه النعمة لجميع من عندهم من الزنوج.

وقد سبق أن بينت أن هجرة مزدوجة حدثت فى الشمال على أثر إلغاء الرق، أو أنها لتسبق هذا الحادث عندما تكون الظروف مواتية لها، فالعبيد يتركون البلاد، لينتقلوا جنوباً، ويسارع البيض من أهالى الشمال ومن أوربا نفسها، ليحلوا محلهم. ولكن هذين السببين لا يمكن أن يعملا بطريقة واحدة فى الولايات الجنوبية. فعدد الأرقاء، من جهة، كبير فيها لدرجة أنه لا يسمح بنقلهم من البلاد، ومن جهة أخرى فإن الأوربيين والأمريكيين الأحرار الذين فى الشمال يخشون أن يؤدى بهم الأمر إلى سكنى بلاد لا ينال العمل فيها حقه من التكريم الواجب له، وزيادة على ذلك فإنهم ينظرون بحق إلى الولايات التى فيها عدد السود يوازى عدد البيض أو يزيد عليها، على أنها معرضة لأخطار جسام وبذلك فهم يأبون أن يوجهوا نشاطهم هذا الاتجاه.

وهكذا نجد أن سكان الجنوب ، وهم يلغون الرق ، لايستطيعون أن يدربوا العبيد على أحوال الحرية ، كما يستطيع أهل الشمال تدريبهم عليها تدريجياً . فليس لديهم وسائل لإنقاص عدد الزنوج بشكل محسوس ، وسيظلون عاجزين عن أن يمنعوا إسرافهم فى التكاثر والازدياد . ففى بضع سنين سيكون ثم شعب كبير من السود فى قلب أمة من البيض يكاد يكون معادلاً لها .

فسوء استخدام السلطة نفسه هذا الذى يستبقى الرق قائماً يصبح عندئذ مصدر أخطار مفزعة لسكان الجنوب البيض . وإنا لنجد فى الوقت الحاضر أن ذرارى الأوربيين وحدهم ، هم ملاك الأرض وأسياد مطلقون لكل عمل ، فهم وحدهم يملكون الثروة كما يملكون المعرفة والأسلحة . وهذه المزايا تعوز السود ولكنهم يستطيعون أن يعيشوا بدونها ، لأنهم عبيد . فإن كان العبد حراً ومضطراً أن يعمل لكسب قوته هل يستطيع أن يعيش بدون هذه الأمور ، ويحتمل الحياة ؟ أم لاتظل الأدوات نفسها التى أدت إلى سيادة البيض فى الوقت الحاضر ، تعرضه مع وجود الرق لآلاف من الأخطار لو أن هذا الرق قد ألغى؟

مادام الزنجى عبداً رقيقاً أمكن استبقاؤه فى حالة لاتختلف كثيراً عن حالة السوائم . أما إذا ما أعتق وصار حراً فلا يسعه إلا أن يحصل على درجة من التعليم تمكن له من أن يدرك مدى سوء حظه ، ويعمل على أن يجد لها علاجاً ؛ ومع ذلك فثم مبدأ غريب من العدالة النسبية متأصل فى النفس البشرية . فالناس يتأثرون تأثراً عميقاً من ذلك التفاوت الذى بين أفراد الطبقة الواحدة أكثر من تأثرهم بما قد يلاحظ من التفاوت الذى بين الطبقات المختلفة . فيستطيع المرء منا أن يفهم الرق ، ولكن كيف يسمح لعدة ملايين من المواطنين أن يعيشوا تحت عبء من العار الأبدى والبؤس المتوارث ؟ ففى الشمال يشعر الزنوج الأحرار بهذه المصاعب والمذلات ، ولكن قواهم وأعدادهم قليلة ، على حين أنهم فى الجنوب كثيرون وأقوياء .

عندما نسلم بأن البيض والزنوج المعتقين يوضعون فى الإقليم الواحد فى مركز جماعتين أجنبيتين ، أدركنا بسرعة أنه لايوجد سوى فرصتين للمستقبل . فإما يجب أن ينفصل الزنوج عن البيض انفصالاً تاماً ، وإما أن يختلطوا بهم اختلاطاً كبيراً . وقد سبق لى أن عبرت عما أعتقده بشأن الحالة الثانية ، فلاأظن أن الجنسين الأبيض والأسود يمكن أن يعيشا معاً فى أى قطر على قدم المساواة . ولكنى أعتقد أن الصعوبة فى الولايات المتحدة أشد منها فى أى قطر آخر . قد يتغلب الفرد المنعزل على التعصب الدينى أو الجنسى والقومى ؛ وإن كان هذا الفرد ملكاً فقد يستطيع أن يستحدث فى المجتمع تغييرات مدهشة . ولكن شعباً بأسره لايمكن أن يرتفع على ذات نفسه . فالملك المطلق الذى يستطيع أن يخضع الأمريكيين وعبيدهم السابقين لنير واحد ، قد يتيسر له أن ينجح فى مزج الجنسين بعضهما ببعض . ولكن مادامت الديمقراطية الأمريكية على رأس الأحوال فإن

أحداً لن يضطلع بمثل هذ المهمة الشاقة . ولا ضير فى أن نتنبأ بأنه كلما ازداد تحرر سكان الولايات المتحدة البيض ، ظلوا أكثر انعزالاً .

سبق أن أشرت إلى أن الجنس الهجين يعد الرابطة الصحيحة للاتحاد بين الأوربيين والهنود . وكذلك المولدون ، فهم حلقة الاتصال بين البيض والسود . فحيث يكثر المولدون لا يكون الاختلاط بين الجنسين مستحيلاً ، ففى أجزاء من أمريكا نجد الاختلاط بين الزنوج والأوربيين كبيراً ، حتى ليندر أن تصادف رجلاً أسود خالصاً أو أبيض خالص النسب . فعندما يصلون إلى هذه النقطة لا بأس أن يقال فى الجنسين أنهما اتحدا ، أو بالأحرى أنهما كونا جنساً ثالثاً متصلاً بكل منهما ، ولكنه ليس واحداً من أيهما .

يعد الإنجليز من بين جميع الأوربيين أقل شعوب الأرض اختلاطاً بالزنوج ، فترى فى جنوب الاتحاد هجناء عديدين أكثر مما نجدهم فى شماله ، ولكنهم أقل جداً مما فى أية مستعمرة أوربية أخرى . وليس الهجناء كثيرين كثرة مطلقة فى الولايات المتحدة . فليس لهم قوة خاصة بهم . وعندما تحدث مشاجرات بسبب اختلاف اللون تراهم ينضمون عادة إلى صفوف البيض ، شأنهم فى ذلك شأن الخدم الذين يعملون فى بيوت العظماء فى أوربا . فهم يتخذون مظهر النبلاء ويقفون موقفهم بإزاء الطبقات التى دونهم .

إن حب التفاخر بالأصل والنسب ، وهو أمر طبيعى فى إنجلترا ، قد زادته زيادة كبيرة ، تلك الكبرياء الشخصية التى تخلقها الحرية الديمقراطية فى الأمريكيين . فالمواطن الأبيض فى الولايات المتحدة فخور بجنسه ، وفخور بذاته . وإن كان البيض والزنوج لا يختلطون فى شمال الاتحاد ، فكيف باختلاطهم فى الجنوب ؟ فهل يتصور أحد لحظة أن أمريكياً من الولايات الجنوبية ، وقد وضع كما لابد أن يوضع ، بين الرجل الأبيض بكل ما له من تفوق أدبى ومادى ، وبين الزنجى - هل يمكن لهذا الأمريكى أن يفكر فى أن يختلط بهذا الأخير (الزنجى) ؟ إن أمريكيى الولايات الجنوبية لهم نزعتان قويتان لابد أن تحفظاهم دائماً فى عزلة . أولاهما الخوف من أن يندمجوا فى الزنوج الذين كانوا لهم عبيداً من قبل ، والنزعة الثانية فزعهم من أن يهبطوا إلى مستوى جيرانهم البيض .

فلو أنى أردت أن أتنبأ بما عسى أن يكون فى المستقبل لقلت إن إلغاء الرق فى الجنوب سيؤدى بطبيعة الحال إلى زيادة نفور السكان البيض من السود . ورأيى هذا مبنى على ما سبق أن ذكرته فى ملاحظة شبيهة لاحظتها فى الشمال . فقد ألمعت إلى أن السكان البيض فى الشمال يحرصون كل الحرص على تحاشى السود ، كلما أزال التشريع الحواجز التى تحول دون اتصالهما . فما الذى يمنع حدوث النتيجة نفسها فى الجنوب ؟ ففى الشمال يمنع البيض من الاختلاط بالسود من أجل خطر موهوم ، أما فى الجنوب حيث الخطر حقيقى فلست أستطيع أن أصدق أن الخوف يكون أقل .

فإن سلمنا ، من جهة ، أن السكان الملونين (والحقيقة لا نزاع فيها) سيتجمعون

باستمرار فى أقصى الجنوب ، ويزيدون بسرعة تفوق سرعة تزايد البيض ؛ وإن سلمنا كذلك ، من جهة أخرى ، بأنه من المستحيل أن نتنبأ بمجيء وقت يختلط فيه البيض بالسود اختلاطاً كبيراً ييسر للسود أن يحصلوا من المجتمع على ذات الفوائد والميزات التى يتمتع بها البيض - أفلا يجب علينا أن نستنتج أن السود والبيض سيقاتلون قتالاً سافراً فى الولايات الجنوبية ؟ ولكن إن سألنا عما عسى أن تكون نتيجة هذا القتال ، أدركنا على الفور أنا هنا لا نجد أمامنا غير الحدس الغامض والتخمينات المبهمة . فقد يستطيع العقل البشرى أن يرسم دائرة واسعة تشمل المستقبل ، ولكن المصادفة هى التى تتحكم فى هذه الدائرة ، ولا تدع مجالاً للتنبؤ وبعد النظر . ففى كل صورة ترسم للمستقبل نقطة غامضة لا يستطيع العقل أن ينفذ منها ، ومع ذلك يبدو محتملاً احتمالاً كبيراً أن مصير البيض فى جزائر الهند الغربية أن يخضعوا ، وهذا نفسه هو مصير السود فى القارة .

ففى جزائر الهند الغربية نجد المزارعين البيض منفصلين وحدهم وسط عدد جم من السكان السود ، أما فى القارة فالزنوج يعيشون بين المحيط وبين شعب لا عدالة له انبسط فوقهم فى كتلة متماسكة ، من حدود كندا الجليدية إلى تخوم فرجينيا ، ومن ضفاف نهر الميسورى إلى شواطىء المحيط الأطلسى . فلو أن مواطنى أمريكا الشمالية البيض بقوا متحدين لكان من الصعوبة بمكان أن نعتقد أن الزنوج سيفلتون من الهلاك الذى سيهددهم . فلا مناص من أن تقهرهم الحاجة ، أو يخضعهم السيف . أما السود الكثيرو العدد المتجمعون على شواطىء خليج المكسيك ، فأمامهم فرصة للنجاح إذا ما انحل الاتحاد الأمريكى عندما يبدأ الصراع بين الجنسين الأبيض والأسود . فإن انفصمت عروة الرابطة الفدرالية لم يعد سكان الجنوب يستطيعون الاعتماد على المعاونة الدائمة من مواطنيهم الشماليين . فهؤلاء الشماليون واثقون كل الثقة من أن الخطر لا يستطيع أن يمسهم ، ولولا أنهم ملزمون بأن يهبوا لتقديم المساعدة للجنوب إلزاماً إيجابياً لأمكننا أن نقول إن التعاطف العنصرى لن يكون عندئذ مجدياً .

ومع ذلك ، ففى أى وقت تشتعل الخصومة بينهما نجد البيض الذين فى الجنوب سيدخلون ، حتى وإن تركوا وشأنهم ، حومة النضال ، وهم متفوقون تفوقاً عظيماً ، من حيث المعرفة ووسائل الحرب . ولكن سيكون السود أصحاب الكثرة العددية ، وستكون همة اليأس فى صفهم ، ولا يخفى أن كليهما مصدر قوة للمحاربين . وسيكون مصير سكان الولايات الجنوبية البيض شبيهاً بمصير العرب فى إسبانيا . فبعد أن ظلوا يحتلون البلاد قروناً طويلة فربما يضطرون إلى أن يعودوا أدراجهم خطوة خطوة حتى يرجعوا إلى البلد الذى جاء منه أجدادهم ويتركوا للسود امتلاك إقليم يبدو أن العناية خصصته لهم . ماداموا سيعيشون فيه ويعملون بأسهل مما يعيش البيض ويعملون .

إن خطر قيام صراع ا! يض والسود فى الولايات الجنوبية من الاتحاد (وهو خطر ،

مهما كان بعيداً ، قد يكون محتوماً ولامناص من وقوعه) يشغل بال الأمريكيين دائماً ، ويهددهم بكابوس مزعج . وهو موضوع حديث السكان فى الشمال ، وإن لم يكن لهم ما يخشونه منه مباشرة . ولكنهم عبثاً ما يحاولون أن يجدوا وسيلة تجنبهم الكوارث التى يحذرهم منها بعد النظر . أما فى الولايات الجنوبية فليس ثمة أحد يتناقش فى هذا الموضوع ، فلا تجد مزارعاً يشير إلى المستقبل ، وهو يتحدث إلى الأجانب ، ولا تراه يعبر عن مخاوفه لأصدقائه بل يسعى وراء إخفائها حتى عن نفسه . ولكن ثمة شيء يساور أهالى الجنوب أشد رهبة من مخاوف الشمال الصاخبة .

فقد أدى هذا القلق الشامل إلى عمل لايزال غير معروف حتى الآن ، ومع ذلك فمن المحتمل أن يغير مصائر جزء كبير من بنى الإنسان . فقد دفع الخوف من المخاطر التى أشرت إليها تواً ، بعض المواطنين الأمريكيين إلى تكوين جماعة تهدف إلى تصدير الزنوج الأحرار الذين يريدون التخلص من الظلم المسلط عليهم ، فتنقلهم إلى سواحل غينيا على نفقتها الخاصة .

ففى سنة ١٨٢٠ تكونت هذه الجماعة التى أشرت إليها ، واختارت محلة فى إفريقيا عند خط عرض ٧ شمالاً ، وأطلقت عليها اسم ليبيريا ، وتدلنا أحدث الأخبار أن ٢٥٠٠ زنجى قبلوا الذهاب إليها . وأدخلوا النظم الأمريكية الديمقراطية فى بلاد كان يسكنها أجدادهم من قبل . ففى ليبيريا الآن حكومة تقوم على أساس النظام النيابى ، وبها محلفون من الزنوج ، وقضاة وقسوس منهم كذلك ، وشيدت فيها الكنائس ، وأسست الصحف . ومن غرائب القدر أن يحرم على البيض أن يدخلوا ليبيريا هذه !

إن هذا لمن غرائب صروف الزمن حقاً ، فقد مضى الآن مائتان من السنين على قيام سكان أوربا بانتزاع الزنجى من بيته ومن بين أحضان أسرته ، لينقلوه إلى شواطىء أمريكا الشمالية ، واليوم نجد الأوربيين فى أمريكا مشغولين بإعادة سلالات هؤلاء الزنوج أنفسهم إلى القارة التى سبق أن انتزعوهم منها انتزاعاً ، لقد تعلم الزنوج المتوحشون شئون الحضارة وهم فى أصفاد الرق ، وعرفوا شئون النظم السياسية الحرة ، وهم فى العبودية . لقد ظلت إفريقيا إلى الوقت الحاضر مغلقة الأبواب فى وجه علوم البيض وفنونهم ، ولكن مخترعات أوربا يحتمل أن تدخل هذه الأقاليم ، بعد أن عاد إليها الإفريقيون أنفسهم . إن إسكان ليبيريا يقوم على فكرة سامية مثمرة ، وأيًّا كانت نتائجها لإفريقيا فإنها لايمكن أن تكون علاجاً لمتاعب الدنيا الجديدة .

ففى اثنتى عشرة سنة نقلت « جمعية الاستعمار » ألفين وخمسمائة زنجى إلى إفريقيا ، وفى هذه المدة ذاتها ولد فى الولايات المتحدة حوالى سبعمائة ألف زنجى . فإن كان فى قدرة ليبيريا أن تستقبل آلافاً من السكان الجدد ، وكان الزنوج فى حالة تجعل إرسالهم إليها مفيداً ، واستطاع الاتحاد أن يزود الجمعية بإعانات سنوية ، وأن ينقل الزنوج إلى إفريقيا

على سفن حكومية - إن تم هذا كله ، فإنه مع ذلك لا يستطيع أن يوازن الزيادة الطبيعية التى يزدادها عدد السكان السود . وإذ ليس فى استطاعة الاتحاد أن ينقل من أمريكا كل عام عدداً من الناس يعادل من يولد منهم فى بلاد الاتحاد كل سنة ، فإن هذا لن يمنع الشر من أن يستشرى، وهو شر يتفاقم فعلاً كل يوم فى الولايات هذا ، ولن يغادر الجنس الزنجى شواطىء القارة الأمريكية التى جلبته إليها شهوات الأوربيين ورذائلهم ، وإنه لن يختفى من الدنيا الجديدة مادامت موجودة . نعم قد يستطيع سكان الولايات المتحدة أن يؤجلوا وقوع الكوارث التى يخشونها ولكن لم يعد فى طاقتهم الآن أن يقضوا على سببها الفعال .

أرانى مضطراً إلى الاعتراف بأنى لا أعد إلغاء الرق وسيلة لتفادى الصراع بين البيض والسود فى الولايات الجنوبية ، فمن الممكن أن يظل الزنوج أمداً طويلاً فى البلاد دون أن يتشكوا . ولكن إن هم رفعوا مرة إلى مستوى الأحرار ، فسرعان ما يثورون من أجل حرمانهم كل حقوقهم المدنية تقريباً . ولما كانوا لا يستطيعون أن يتساووا مع البيض ، فسرعان ما يتخذون إزاءهم موقفاً عدائياً . لقد ساعد كل شىء على تحرير العبيد فى الشمال ، وعلى إلغاء الرق من غير أن يترتب عليه جعل الزنوج مصدر فزع مادام عددهم صغيراً لا يمكنهم من أن يحاولوا أبدا المطالبة بما لهم من حقوق . ولكن هذا لا يصدق على الجنوب حيث كانت مسألة الرق مسألة تجارية وصناعية لأصحاب الرقيق فى الشمال . أما لأصحابه فى الجنوب فهى مسألة حياة أو موت . معاذ الله أن أكون ممن يعملون على تبرير مبدأ استرقاق الزنوج ، مثلما فعل بعض الكتاب الأمريكيين . فكل ما أود أن أقوله هو أن جميع البلاد التى استمسكت من قبل بهذا المبدأ اللعين لا تستطيع كلها أن تتركه فى الوقت الحاضر .

فعندما أفكر فى أحوال الجنوب ، لا أجد أمامى سوى طريقتين اثنتين للعمل يمكن أن يتبعهما ، كلتيهما أو إحداهما ، سكان تلك الولايات الجنوبية . فعليهم أن يحرروا العبيد ويختلطوا بهم ، وإلا فليظلوا منعزلين عنهم وليستبقوهم فى الرق أطول زمن يتيسر لهم أن يبقوهم فيه . أما كل حل وسط فيبدو لى أنه سيؤدى - فى وقت قريب - إلى حرب من أفظع الحروب الأهلية ، بل ربما أدت إلى إبادة أحد الجنسين . تلك هى وجهة النظر التى يأخذ بها أمريكيو الجنوب إزاء هذه المسألة ، وهم يعملون وفقها باستمرار . ولما كانوا قد أجمعوا أمرهم على ألا يختلطوا بالزنوج ، فإنهم يأبون أن يردوا إليهم حريتهم .

وليس ذلك أن سكان الجنوب يعدون الرق ضرورياً لثروة المزارعين ، فكثيرون من المزارعين يتفقون فى هذه النقطة مع مواطنيهم الشماليين ، فهم يتفقون معهم فى التسليم بأن الرق مضر بمصالحهم ، ولكنهم مقتنعون بأن إزالة هذا الشر تجعل وجودهم نفسه فى خطر . فالتعليم المنتشر الآن فى الجنوب أقنع السكان بأن الرق مضر بأصحاب العبيد ، ولكنه

.بين لهم كذلك بصورة أوضح من قبل أنه يكاد يكون من المستحيل عليهم أن يتخلصوا منه . ومن ثم نشأ تناقض غريب . فكلما اشتد الجدل حول فائدة الرق عملت القوانين على تثبيت أقدامه وإرساخ قواعده ، فبينما كان مبدأ الرق يلغى تدريجياً فى الشمال ، كان هذا المبدأ نفسه يؤدى باستمرار إلى عواقب أشد وأقسى فى الجنوب .

أسفرت التشريعات التى وضعتها الولايات الجنوبية فى الوقت الحاضر بشأن العبيد عن فظائع لامثيل لها ، تكفى للتدليل على أن قوانين بنى الإنسان قد انحرفت كل الانحراف ، وإنها لتفضح ذلك الموقف المستيئس الذى تقفه الجماعة التى وضعت هذه القوانين والتشريعات . فأمريكيو هذا الجزء من الاتحاد لم يزيدوا الرق مصاعب على مصاعبه ، ولكنهم ، على العكس من ذلك ، عملوا على تحسين مركز العبيد وأحوالهم المادية . إن الوسيلة الوحيدة التى اتخذها القدامى للاحتفاظ بالعبيد كانت السلاسل والموت . ولكن الأمريكيين الذين فى جنوب الاتحاد قد توصلوا إلى ضمانات عقلية أقوى لاستبقاء سلطاتهم . فقد وجهوا استبدادهم وبطشهم ضد العقل البشرى نفسه ، لقد اتخذ القدامى احتياطات لمنع العبيد من تحطيم أغلالهم ، أما اليوم فقد اتخذت الإجراءات لتجريدهم حتى من الرغبة فى الحرية . لقد استرق القدامى أجسام العبيد ، ولكنهم لم يفرضوا قيوداً على عقولهم ولا على تعليمهم بل ظلوا يعملون باستمرار وثبات بحسب مبدئهم المقرر . فقد صار معروفاً بينهم أن للرق نهاية طبيعية ، ولابد للعبد من يوم يعتق فيه ويتحرر فيصبح مساوياً لسيده . أما أمريكيو الجنوب الذين لايسلمون أبداً بأن الزنوج يمكن أن يختلطوا بهم ، فقد حرموا عليهم أن يتعلموا القراءة والكتابة ، وإلا تعرضوا لعقوبات صارمة . وإذ كان هؤلاء الأمريكيون يأبون أن يرفعوا العبيد إلى مستواهم هم ، فقد نزلوا بهم إلى أقرب مدى ممكن من مستوى البهائم .

كان الأمل فى العتق والحرية مسموحاً به دائماً للرقيق ليهون عليهم ما يلقون من مصاعب ، ولكن أمريكيى الجنوب يعلمون حق العلم أن التحرير لايكون إلا خطراً عليهم مادام العبد العتيق لا يوضع مع سيده السابق فى مستوى واحد . فإعطاء رجل حريته ، واستبقاؤه فى البؤس والذلة ، لايكون إلا إعداداً لزعيم يقوم فى المستقبل ويتزعم ثورة العبيد على أسيادهم . وزيادة على ذلك فقد لوحظ من زمن طويل أن وجود زنجى حر يحرك بشكل غامض عقول إخوانه الذين لم يسعدهم الحظ كما أسعده ، ويعطيهم فكرة مبهمة عن حقوقهم ، ومن ثم ظل أمريكيو الجنوب يجردون مالك العبيد من حقه فى تحرير عبيده ، فى أكثر الأحوال .

حدث أن قابلت فى جنوب الاتحاد شيخاً كان يعاشر إحدى إمائه معاشرة الأزواج واستولدها عدة أطفال . فكأنى بهؤلاء الصبية قد ولدوا عبيداً لأبيهم ، وكان يخطر بباله أن يوصى لهم ، بحريتهم على الأقل . ولكن السنين مرت قبل أن يتمكن من التغلب على ما قام

فى سبيل تحريرهم من عقبات ؛ ودهمته الشيخوخة ؛ واقترب أجله من نهايته ، وجعل يتصور أبناءه يسحبون من سوق إلى سوق ، وينتقلون من سلطة أبيهم إلى عصا سيد غريب . وبلغ به الأمر أن أوردته تصوراته المريعة هذه مورد الجنون . فعندما شاهدته كان ضحية اليأس المؤلم ، وعندئذ أدركت فداحة العقاب الذى تنزله الطبيعة بمن ينتهك حرمة قوانينها .

تلك شرور لاشك مستطيرة ، ولكنها النتيجة الضرورية المتوقعة من مبدأ الرق الحديث . فلما اختار الأوربيون عبيدهم من جنس غير جنسهم ، كان معظمهم يعتبرون ذلك الجنس دون سائر أجناس البشر الأخرى ، وكانوا يعتقدون أن أية فكرة عن ارتباط وثيق به بالغة الفظاعة . فلابد أنهم كانوا يعتقدون أن الرق سيظل قائماً إلى الأبد ، مادام لاتوجد حالة وسط يمكن أن تكون ثابتة ودائمة ، بين الإفراط فى التفاوت الذى يحدثه الاسترقاق ، والمساواة الكاملة التى تنشأ من الاستقلال . هذا ، وقد شعر الأوربيون أنفسهم بهذه الحقيقة بعض الشعور ، ولكنهم أبوا أن يعترفوا بها حتى لأنفسهم ، فكلما كان عليهم أن يتصلوا بالعبيد ، كانت مصلحتهم الخاصة ، أو كبرياؤهم ، أو شفقتهم هى التى تملى عليهم المسلك الذى يسلكونه إزاءهم . فقد انتهكوا أول الأمر كل حق من حقوق الإنسانية فى معاملتهم العبيد ، ثم أخبروهم فيما بعد أن هذه الحقوق غالية ومقدسة لا تنتهك حرمتها ، وفتحوا صفوفهم لعبيدهم . ولما حاول هؤلاء العبيد أن يلتحقوا بهذه الصفوف فعلاً طردوهم منها شر طردة . وإذ كانوا راغبين فى العبيد ، فقد تركوا أنفسهم على كره منهم يتأثرون بالحرية والسلطان من غير أن تكون لديهم الشجاعة فى أن يكونوا ظالمين كل الظلم عادلين كل العدل .

وإن كان من المستحيل علينا أن نتوقع مجيء فترة يختلط فيها أمريكيو الجنوب دماءهم بدماء الزنوج ، فهل يستطيعون أن يحرروا عبيدهم من غير أن يجعلوا سلامتهم هم فى خطر ؟ فإن كانوا مضطرين إلى استبقاء هذا الجنس فى أسر الرق كى ينقذوا أسرهم هم ، ألا يجوز لنا أن نعذرهم لاستفادتهم من أصلح الوسائل لهذا الغرض ؟ إن الحوادث الجارية فى الولايات الجنوبية تبدو لى أفظع نتائج الرق ، وأقربها إلى الطبيعة فى وقت واحد . فعندما أرى نظام الطبيعة يعبث به ، وأسمع صرخات الإنسانية فى نضالها ضد القوانين نضالاً عقيماً لايجدى ، لاينصب غضبى على أهل زماننا الذين يعدون أدوات هذه الفظائع ، ولكنى أوجه سخطى ولعناتى إلى أولئك الذين أعادوا الرق إلى العالم بعد أن قضى ألف سنة يستمتع بالحرية .

ومهما كانت الجهود التى بذلها أمريكيو الجنوب فى سبيل الإبقاء على الرق ، فإن النجاح لن يكون حليفهم دائماً . فقد أصبح الآن محصوراً فى بقعة واحدة من بقاع العالم المتحضر . ولما كانت المسيحية قد دمغته بأنه نظام ظالم ، وقرر الاقتصاد أنه مضر ، وتعارضه الآن حريتنا الديمقراطية ، ويأباه الرأى المعاصر - فإنه لن يكتب له البقاء . فإنه سيمنع ،

إما بعمل السادة أو بإرادة العبيد ، وفى أى من الحالتين ينتظر أن تترتب عليه كوارث فادحة . فإن أنكرنا الحرية على الزنوج ، فقد ينتهى بهم الأمر أن يحصلوا عليها بالقوة ، وإن هى منحت لهم ، فلن يمضى عليهم زمن طويل حتى يسيئوا استخدامها .

فرص البقاء أمام الاتحاد الأمريكى والأخطار التى تهدده

لم كانت القوة الغالبة ، فى الولايات ، وليست فى الاتحاد - لايدوم الاتحاد إلا مادامت جميع الولايات راضية بالانضمام إليه - الأسباب التى تؤدى إلى بقاء الولايات متحدة - فائدة الاتحاد فى مقاومة الأعداء الخارجين وفى استبعاد الأجانب عن أمريكا - ليس بين الولايات المختلفة حواجز طبيعية - ولا مصالح متعارضة تفرق بين بعضها وبعض - المصالح المتبادلة بين الولايات الشمالية والجنوبية والغربية - الأواصر الفكرية فى الاتحاد - وحدة الآراء - الأخطار المحدقة بالاتحاد والناجمة عن أخلاق المواطنين وأهوائهم المختلفة - أخلاق المواطنين الذين فى الجنوب منهم ، والذين فى الشمال - سرعة نمو الاتحاد سبب من أسباب تلك الأخطار الكبرى التى تهدده - تقدم السكان صوب الشمال الغربى - انجذاب القوة إلى هذا الاتجاه نفسه - الأهواء الناجمة عن انقلاب الحظ بغتة - هل تتجه سلطة حكومة الاتحاد الحاضرة إلى الزيادة أم تتجه إلى النقصان - الأمارات المختلفة التى تدل على نقصانها - الإصلاحات الداخلية - الأراضى البور - الهنود - البنك - التعريفة - القائد جاكسون .

يتوقف وجود المؤسسات المختلفة الحالية التى فى العديد من الولايات على قيام الاتحاد نفسه ، إلى حد ما . فمن الخير إذن أن نبحث أولاً عما عسى أن يكون مصير هذا الاتحاد المحتمل . ولكن ثم نقطة نستطيع أن نسلم بها على الفور . فلو حدث أن انحل الاتحاد الحالى ، لايكون فى رأيى ، ثمة أى خلاف فى أن الولايات التى يتكون منها هذا الاتحاد الآن ، لن تعود إلى حالتها الأصلية من الانعزال والانفراد بنفسها ، بل يتكون منها اتحادات عدة بدلا من اتحاد واحد .. هذا ، ولست أبغى هنا البحث عن المبادىء التى يحتمل أن تقوم عليها هذه الاتحادات ، بل كل ما أريده لايعدو بيان الأسباب التى قد تؤدى إلى تفكك الاتحاد الحالى .

وقد يضطرنى هذا الغرض إلى العودة أدراجى بضع خطوات ، إلى موضوعات سبق لى أن طرقتها - هذا ، وليس يفوتنى أن القارىء قد يتهمنى بالتكرار ، ولكن عذرى فيه أن النقاط التى مازالت بحاجة إلى درس ، ذات أهمية بالغة . وخير لى أن أسرف فى القول من أن لايفهم الناس ما أقول حق الفهم . وإنى لأوثر أن أوذى المؤلف على عدم إيفاء الموضوع حقه .

حاول المشترعون الذين وضعوا دستور سنة ١٧٨٩ أن يجعلوا للسلطة الفدرالية ، كياناً منفصلاً ، وقوة عظيمة . ولكنهم كانوا مقيدين بشروط مهمتهم التى اضطلعوا بها .

فهم لم يُعَينوا لتكوين حكومة لشعب مفرد قائم بذاته ، بل لينظموا انضمام عدة ولايات بعضها إلى بعض . فأيا كانت ميولهم ، فلم يكن يسعهم إلا أن يقسموا حق ممارسة السيادة .

وكى نفهم النتائج التى تترتب على هذا التقسيم ، يجب أن نميز بين شتى وظائف الحكومة . فثم أمور قومية بطبيعتها ذاتها ، أى أنها أمور تؤثر فى الأمة بأسرها ، ولا يمكن أن يعهد بها إلا إلى الرجل أو الهيئة التى تمثل الأمة جميعها أتم تمثيل . ومن هذه الأمور ، شئون الحرب ، والدبلوماسية . وهناك أمور أخرى إقليمية بطبيعتها ، أى أنها لاتمس إلا أجزاء ومواضع معينة ، ولا يمكن أن تعالج حق المعالجة إلا فى هذه الأجزاء والمواضع نفسها . فمن هذه الشئون ميزانية إحدى البلديات مثلاً . وأخيراً ثم شئون ذات طبيعة مختلفة . فهى قومية ، من حيث إنها تمس جميع المواطنين الذين تتكون منهم الأمة ، وهى إقليمية من حيث إنه ليس من الضرورى أن تقوم الأمة نفسها بإعدادها وتهيئتها كلها ، ومن هذه الشئون مثلاً : الحقوق التى تنظم أحوال المواطنين المدنية والسياسية . فليس ثمة جماعة يمكن أن تبقى من غير أن يكون لها حقوق مدنية وأخرى سياسية ، ومن ثم كانت هذه الحقوق تهم المواطنين جميعاً على السواء ، ولكن ليس من الضرورى دائماً لبقاء الأمة ولازدهارها ، أن تكون جميع هذه الحقوق واحدة مطردة ، ولا هى على هذا ، يجب أن تكون مما تقوم به السلطة المركزية .

عندنا إذن نوعان من الشئون التى تشغل بال السلطة السيادية ، وهما نوعان يوجدان فى كل الجماعات المنظمة تنظيماً طيباً ، أياً كان نظامها السياسى . وبين هذين الطرفين – النوعين – توجد تلك الشئون التى أسميتها مختلطة . وإذ ليست هذه الشئون المختلطة قومية محضة ، ولاهى إقليمية محضة ، فالعناية بها إما أن توكل إلى الحكومة القومية ، أو إلى الحكومة الإقليمية ، بحسب مايتم الاتفاق عليه بين الطرفين المتعاقدين دون أن يترتب على ذلك أى إضعاف للغرض الذى من أجله قامت الجماعة .

هذا ، وتتكون سلطة السيادة عادة باتحاد الأفراد الذين يتكون منهم الشعب . أما السلطات الفردية ، أو القوى الجماعية التى لايمثل كل منها سوى كسر أو جزء يسير من السيادة ، فهى العناصر الوحيدة التى تدخل فى نطاق الحكومة العامة . وفى هذه الحالة تقوم الحكومة بطبيعة الحال ، لابتنظيم تلك الشئون التى تعد قومية فحسب ، بل تقوم كذلك بتنظيم معظم تلك الشئون التى سميناها مختلطة ، وبذلك تصبح أعمال الحكومة الإقليمية مقصورة على الجزء من السيادة الذى لابد منه لرخائها وازدهارها .

ولكن قد تكون سلطة السيادة أحياناً من عدد من هيئات سياسية سبق أن نظمت بفضل بعض ظروف سابقة على اتحادها بعضها ببعض . ففى هذه الحالة ، تقوم حكومات الأقاليم أو الولايات بالإشراف على جميع الشئون المختلطة ، أو على بعضها ، لاعلى تلك

الشئون التى تتعلق بالولايات وحدها بوجه خاص ، وذلك لأن الأمم الاتحادية التى كانت ذات سيادات مستقلة قبل اتحادها ، والتى مازالت تمثل قسطاً غير قليل من السيادة ، قبلت ألا تنزل للحكومة العامة إلا عن ممارسة الحقوق التى لا غنى عنها للاتحاد فقط .

أما إذا خول للحكومة القومية حق تنظيم الشئون المختلطة التى للسيادة ، فضلاً عن الامتيازات الذاتية فى طبيعة تلك الحكومة ، فإن نفوذها سيكون لا شك طاغياً ، ولا تكون حقوقها واسعة فحسب ، بل ستكون جميع الحقوق التى ليست لها قائمة برضاها هى ، وعندئذ يخشى أن تجرد الحكومات الإقليمية عمالها من حقوق طبيعية وضرورية .

أما إذا خول للحكومات الأقليمية سلطة تنظيم هذه الأمور المختلطة ، فقد تسود الجماعة نزعة مضادة ، وتكون القوة الغالبة إذن ، فى الإقليم وليست فى الأمة . ويخشى أن تجرد الحكومة القومية آخر الأمر من تلك الميزات التى لا بد لها منها للمحافظة على كيانها . فللأمم الفردية إذن ميل طبيعى إلى التركيز ، على حين تميل الأمم الاتحادية إلى التفكك .

بقى علينا أن نطبق هذه المبادىء العامة على الاتحاد الأمريكى . احتفظت الولايات المختلفة بالضرورة بحقها فى تنظيم جميع الأمور الإقليمية المحضة ، وزيادة على ذلك فقد احتفظت (هذه الولايات نفسها) بحقوقها فى تحديد أهلية المواطنين المدنية والسياسية ، وتنظيم العلاقات المتبادلة بين أعضاء الجماعة فيها ، وبتوزيع العدالة بالقسط . ولا يخفى أن هذه كلها حقوق ذات صفة عامة بطبيعتها ، وإن لم تخص الحكومة القومية بالضرورة . هذا ، وقد رأينا من قبل ، أن حكومة الاتحاد قد خول لها حق العمل باسم الأمة جمعاء فى الأحوال التى ينبغى للدولة أن تبدو فيها على شكل قوة مفردة متحدة غير منقسمة ، كما هى الحال فى شئون العلاقات الخارجية مثلا ، وكذلك عندما تهب لتقاوم عدواً مشتركاً ، مقاومة مشتركة . وجملة القول إنها قد خول لها إدارة تلك الشئون التى أسميناها بالشئون القومية .

ففى تقسيم حقوق السيادة هذا التقسيم ، قد يبدو لأول وهلة أن نصيب الاتحاد أعظم من نصيب الولايات . ولكن مزيداً من إنعام النظر يبين لنا أن الأمر ليس كما وهمنا . فالأمور التى تضطلع بها حكومة الاتحاد أوسع جداً مما تقوم به الولايات وإن كانت فرص ممارستها أقل . وأما الأمور التى تضطلع بها الولايات فصغيرة نسبياً ، ولكنها ملحة وعاجلة وتستبقى سلطة الولايات حية نشيطة . فحكومة الاتحاد تسهر على المصالح العامة فى البلاد ، أما مصالح الشعب ذاته العامة ، فليس لها سوى تأثير مشكوك فيه ، على سعادة الأفراد ، على حين تؤثر مصالح الولاية فى سعادة الأفراد هذه تأثيراً مباشراً . فالاتحاد يكفل استقلال الأمة وعظمتها ، وهما أمران لا يؤثران مباشرة فى شئون الأفراد ، على حين أن الولايات المختلفة تعمل على صيانة حرية كل مواطن ، وتنظم له حقوقه وتحمى أملاكه ، وتؤمنه على حياته ، وعلى كل سعادته فى المستقبل .

فالحكومة الفدرالية بعيدة كل البعد عن رعاياها ، أما حكومات الولايات فعلى مقربة منهم جميعاً ، ومستعدة دائماً لأن تستجيب إلى كل من يلجأ إليها ، حتى فى أصغر الأمور شأناً . وإنا لنجد فى صف الحكومة المركزية ميول عدد من الرجال الممتازين حقاً ، الذين يطمحون إلى توجيه الحكومة وإدارتها بأنفسهم . أما فى صف حكومات الولايات المختلفة فمصالح جميع الرجال العاديين الذين لايأملون أكثر من الحصول على السلطة فى ولايتهم الخاصة - ومع ذلك فسلطاتهم على الشعب أكبر ، لأنهم أدنى إلى أفراده وأقرب .

ومن ثم كان للأمريكيين أن يأملوا ، ويخشوا من ناحية الولايات أكثر جداً مما يأملون ويخشون من ناحية الاتحاد . ومن المحتمل ، وبحسب نزعة العقل البشرى الفطرية ، أن يتعلقوا كل التعلق بالولاية ، أشد من تعلقهم بالاتحاد ، وعندئذ تنسجم عاداتهم ووجداناتهم مع مصالحهم الشخصية .

فإذا ما قسمت أمة متماسكة سيادتها ، واختارت أن تكون حكومتها حكومة اتحادية ، ظلت تقاليدها وعاداتها وعرفها فى صراع طويل مع القوانين ، وجعلت للحكومة المركزية نفوذاً يحرمه القانون . ولكن ، عندما يتفق عدد من الولايات الاتحادية على تكوين أمة واحدة ، عملت الأسباب نفسها فى اتجاه عكسى . ولست أشك فى أنه إن أصبحت فرنسا جمهورية متحالفة مثل الولايات المتحدة ، لصارت حكومتها أنشط من حكومة الاتحاد فى البداية ، أما إن غير الاتحاد نظامه وصار حكومة ملكية مثل حكومة فرنسا ، ظلت حكومته أضعف من حكومة فرنسا زمناً طويلاً .. فعندما بدأ الأمريكيون الإنجليز يقاومون مستعمريهم مقاومة قومية ، كان قد مضى على وجودهم تحت نير الاستعمار زمن طويل ، وقامت علاقات ضرورية بين البلديات وأفراد المواطنين فى كل ولاية ، وكانوا قد ألفوا أن يعتبروا بعض الأمور مشتركة عامة بينهم جميعاً ، وأن يديروا هم أموراً أخرى على اعتبار أنها تتصل بمصالحهم الخاصة بهم وحدهم .

والاتحاد هيئة ضخمة كل الضخامة ، لاتقدم للناس شيئاً معيناً محدوداً يمكن أن يتعلق به شعورهم الوطنى . أما نظم الولاية وحدودها فواضحة محصورة ، لأنها تمثل عدداً معيناً من الأغراض المعهودة للمواطنين ، والعزيزة عليهم أجمعين . فالولاية مرتبطة بتربة الأرض ، وبحق الملكية ، وبالعواطف العائلية ، كما ترتبط بذكريات الماضى ، وبالأعمال الحاضرة ، وبالآمال فى المستقبل . فالوطنية إذن ، وكثيراً ما تكون أكثر من امتداد لأنانية الفرد وأثرته ، لاتزال موجهة إلى الولاية ، ولم يتسع أفقها بعد حتى تمتد إلى الاتحاد .. وهكذا تتجه مصالح الناس وعاداتهم ومشاعرهم إلى تفضيل تركيز النشاط السياسى فى الولاية ، على تركيزه فى الاتحاد .

ليس هنا مشقة فى تقدير ما لكل من سلطتى الحكومتين ، حكومة الولايات وحكومة الاتحاد ، من قوة ، وذلك بملاحظة الطريقة التى تمارس بها كل حكومة منهما سلطتها الخاصة

فكلما خاطبت حكومة الولاية فرداً أو جماعة من الأفراد ، كانت لغتها واضحة وحاسمة آمرة . وكذلك تكون لغة الاتحاد عندما يخاطب الأفراد . أما إذا وجهت حكومة الاتحاد هذا الخطاب إلى ولاية من الولايات ، فإنها تناقش بواعثها ، وتشرحها وتبرر مسلكها ، وتحاج ، وتنصح . وعلى الجملة ، فهى تحاول كل شيء إلا أن تأمر وتنهى . فإن قامت شكوك وشبهات بشأن مدى السلطات الدستورية التى لإحدى الحكومتين ، عرضت حكومة الولاية طلباتها فى جرأة ، واتخذت خطوات سريعة قوية لتأييده ، على حين تظل حكومة الاتحاد تجادل وتلجأ إلى ذكر مصالح الأمة ، وإلى ما لها من فطرة سليمة ، ومن أمجاد عريضة . فهى تصانع وتفاوض ولا ترضى أن تعمل إلا بعد أن يبلغ الأمر أشده . حتى لقد يتصور المرء منا لأول وهلة أن حكومة الولايات هى المزودة بسلطة الأمة ، وأن الكونجرس لا يمثل غير ولاية واحدة فحسب .

فالحكومة الاتحادية إذن ، على الرغم من كل الاحتياطات التى اتخذها مؤسسوها الأول ، ضعيفة بطبيعة أحوالها كل الضعف ، حتى إنها لتتطلب ، أكثر من أية حكومة أخرى ، أن يوافق عليها المحكومون موافقة حرة ، حتى تستطيع أن تقوم ، وتحافظ على كيانها . وليس يخفى على أحد أن غرضها الذى ترمى إليه أن تمكن الولايات من أن تحقق فى يسر وسهولة عزمها على أن تظل متحدة . ومادام هذا العزم قائماً فهى حكيمة وقوية ونشيطة . فالدستور يؤهل الحكومة لأن تهيمن على الأفراد ، وأن تتغلب بسهولة على جميع العقبات التى قد يميلون إلى إقامتها فى سبيلها ، ولكنها لم تنشأ بأى حال من الأحوال ، بقصد مواجهة احتمال أن ولاية أو أكثر من ولاياتها ، قد تحدثها نفسها بالانفصال عن الاتحاد .

فلو حدث أن سيادة الاتحاد اشتبكت فى صراع مع سيادة الولايات فى عصرنا الحاضر ، فإنا لننذرها بالهزيمة ونحن موقنون . ولكن ليس من المحتمل أن يتخذ مثل هذا الصراع مأخذ الجد ، فإن الحكومة الفدرالية ستستسلم كلما وجدت المقاومة التى أمامها عنيدة مستمرة . ولقد دلت الخبرة إلى الآن ، أنه كلما قامت ولاية وطالبت بشيء ما فى مثابرة وعزم ، حالفها النجاح دائماً فتفوز بما طلبت ، وإذا ما رفضت بكل عزم أن تفعل شيئاً ما ، تركت وشأنها تفعل ما تراه صالحاً وملائماً .

وحتى إن كان لحكومة الاتحاد أية قوة ذاتية فيها نفسها ، فإن موقع البلاد الجغرافى ليجعل ممارستها هذه القوة أمراً عسيراً كل العسر . فالولايات المتحدة تشغل أقاليم مترامية الأطراف ، ويفصل ولاياتها المختلفة بعضها عن بعض مسافات شاسعات ، وسكانها موزعون على بلاد لا يزال بعضها قفراً أو يكاد يكون كذلك . فإن شاء الاتحاد أن يفرض الولاء لنفسه على مختلف الولايات فرضاً بقوة السلاح ، لوضع نفسه فى مركز أشبه بما كانت فيه إنجلترا تجاه قيام أمريكا بشن الحرب عليهامن أجل الحصول على الاستقلال .

ومهما بلغت قوة الحكومة ، فإنها لن تستطيع الإفلات فى يسر وسهولة من عواقب

مبدأ سلمت به ، على أنه أساس دستورها . فقد تكون الاتحاد برضى الولايات واتفاقها طواعية واختياراً ، وهى باتحادها هذا لم تفقد سيادتها ، ولا هى تحولت به إلى شعب واحد قائم بذاته . فإن شاءت إحدى الولايات أن تسحب اسمها من العقد ، كان من الصعب التدليل على عدم حقها فى مثل هذا الانسحاب . وليس لدى الحكومة الفدرالية أية وسيلة للتشبث بمطلبها هذا مباشرة ، لا بالقوة ولا بالحق .. وكى تتمكن هذه الحكومة (الفدرالية) من التغلب فى يسر على المقاومة التى قد تلقاها من إحدى الولايات الخاضعة لها ، يجب أن يكون لواحدة أو أكثر من هذه الولاية مصلحة خاصة فى بقاء الاتحاد ، كما دل على ذلك تاريخ الاتحادات الكونفدرالية فى أحوال كثيرة .

فلو فرض أن بعض الولايات المنضمة إلى الاتحاد الفدرالى تستمتع وحدها بأهم مزايا الاتحاد الأساسية ، أو التى تتوقف سعادتها وازدهارها على بقاء هذا الاتحاد ، فلا نزاع فى أنها ستكون مستعدة دائماً لتأييد الحكومة المركزية فى إجبارها الولايات الأخرى على الطاعة بالقوة . ولكن الحكومة تكون عندئذ قد استخدمت قوة ليست مستمدة من ذاتها نفسها ، بل من مبدأ يتنافى مع طبيعتها . فالدويلات لاتكون اتحاداً إلا لكى تستمد مزايا متساوية من اتحادها هذا ، والحكومة الفدرالية ، فى الحالة التى أشرنا إليها تواً ، قد استمدت قوتها من عدم توزيع هذه المزايا والفوائد على الولايات بالتساوى .

فلو حصلت إحدى الولايات المتحالفة على قوة كبيرة تمكن لها من الاستيلاء وحدها على السلطة التنفيذية التى للحكومة المركزية ، لاعتبرت الولايات الأخرى مجرد مديريات تابعة لها ، وفرضت عليها ضرورة احترام سلطانها باسم سيادة الاتحاد المستعارة ، وعندئذ يمكن أن تحدث أمور عظام باسم الحكومة الفدرالية ؛ ولكن الحق أن هذه الحكومة تكون قد فقدت كيانها ، ولم يعد لها وجود . ففى هاتين الحالتين كلتيهما ، تزداد السلطة التى تعمل باسم الاتحاد الكونفدرالى قوة ، كلما تركت الحالة الطبيعية التى للاتحادات الكونفدرالية ، ومبادئها المعترف بها .

إن الاتحاد الأمريكى الحالى مفيد لجميع الولايات ، ولكنه مع ذلك ليس مما لاغنى عنه لأية واحدة منهن ، فقد تقطع عدة ولايات روابطها الفدرالية من غير أن تضار سعادة الولايات الأخرى ، ورفاهيتها ، وإن كانت جملة رفاهيتها جميعاً ستكون لاشك قد قلت . فإن كان وجود أية ولاية من الولايات أو سعادتها غير متوقف كل التوقف على الدستور الحالى ، فليس بينها واحدة تميل إلى القيام بتضحيات كثيرة لصيانته والمحافظة عليه . ومن جهة أخرى ، لايبدو أن هناك أية ولاية من الولايات لاتزال إلى الآن يدفعها طموحها إلى أن تهتم اهتماماً كبيراً بالمحافظة على الاتحاد الحالى . صحيح أن نفوذ هذه الولايات ليس واحداً فى المجالس الفدرالية ، ولكن ليس فيها ولاية واحدة تأمل فى السيطرة على سائرها ، أو أن تعاملها على أنها دونها ، أو رعية لها .

فعندما يرغب جزء من الاتحاد حق الرغبة فى أن ينفصل عن الولايات الأخرى ،

يبدو لى ، أنه لانزاع فى أن هذه الولايات لا تستطيع أن تمنعه ولا حتى أن تحاول ذلك ، وأن هذا الاتحاد الحاضر سيدوم مادامت الولايات راضية بالبقاء أعضاء فيه . فلو سلمنا بهذه النقطة ، لهانت المسألة وصارت أقل صعوبة . هذا ، ولسنا نرمى هنا إلى أن نبحث عما إذا كانت ولايات الاتحاد الحاضرة قادرة على الانفصال عنه ، وإنما غرضنا البحث عما إن كانت تؤثر أن تظل مستمسكة به .

وبين الأسباب المختلفة التى تؤدى إلى جعل الاتحاد الحاضر نافعاً للأمريكيين سببان رئيسيان يتجليان واضحين لكل من يرقب الأمور . فإن صح القول ، وهو صحيح ، أن الأمريكيين هم وحدهم الذين يشغلون القارة ، فإن التجارة تجعل جميع الأمم التى تتجر معهم جيراناً لهم . وعلى الرغم من انعزال الأمريكيين الظاهر - فإنهم يجب أن يكونوا أقوياء ، ولا يمكنهم أن يكونوا كذلك ، إلا بأن يظلوا متحدين . فإذا ما انشقت الولايات على الاتحاد أضعفت القوة التى تستمتع بها تجاه الأجانب ، وسرعان ما يخلق الأمريكيون لأنفسهم قوى أجنبية فى عقر دارهم ؛ وسوف يقوم نظام للجمارك الداخلية ، وتفصل الأودية بعضها عن البعض بحدود وهمية ، وتتعطل الملاحة فى مجارى الأنهار ، وتقوم عوائق عديدة تمنع الأمريكيين من حسن الاستفادة من تلك القارة الفسيحة الأرجاء التى وهبتهم العناية الإلهية إياها لتكون أراضى لهم . فليس أمام الأمريكيين الآن أى غزو يهددهم ، ومن ثم فهم ليسوا بحاجة إلى جيوش قائمة ، تكلفهم صيانتها نفقات جساماً ، ولا هم بحاجة إلى فرض ضرائب جدد . أما إذا انحل الاتحاد أصبحت كل هذه الأعباء الثقال ضرورية لهم . فالأمريكيون يهتمون إذن كل الاهتمام بصيانة اتحادهم ، والمحافظة على بقائه . ومن جهة أخرى ، فإن استكشاف أية مصلحة شخصية ، يمكن أن تغرى أى جزء من أجزاء الاتحاد بالانفصال عن الولايات الأخرى ، يكاد يكون مستحيلاً .

فإذا ألقينا نظرة على خريطة الولايات المتحدة شاهدنا سلسلة جبال الأليجانى تمتد من الشمال الشرق إلى الجنوب الغربى ، مارة بنحو ألف ميل من الأراضى ، مما يجعلنا نتصور أن العناية الإلهية قصدت أن تقيم بين وادى المسسبى وشواطىء المحيط الأطلسى حواجز طبيعية تمنع اختلاط الناس بعضهم ببعض ، وتكون الحدود الضرورية التى بين الولايات المختلفة ، ولكن متوسط ارتفاع جبال الأليجانى لا يزيد على ثمانمائة متر ، ومن السهل الوصول من جهات عدة إلى قممها المستديرة وأوديتها الفسيحة المحصورة بين ممراتها . وزيادة على ذلك ، فالأنهار الرئيسية التى تصب فى المحيط الأطلسى مثل الهدسون والصصكيهانا والبوتوماك تنبع كلها من وراء جبال الأليجانى ، من سهل مرتفع مكشوف يطل على وادى المسسبى . وتغادر هذه الأنهار هذا الإقليم وتشق طريقها خلال الحاجز الذى يبدو كأنه يوجهها نحو الغرب ، وهى فى تثنيها خلال الجبال تفتح للإنسان طرقاً طبيعية سهلة .

ولا يوجد ثم حاجز طبيعى يفصل الأقاليم التى يقطنها الأمريكيون الإنجليز الآن ؛ فجبال الأليجانى أبعد من أن تفصل أمماً بعضها عن بعض ، بل إنها لا يمكن أن تفصل حتى بعض الولايات عن الأخرى . فنيويورك ، وبنسلفانيا وفرجينيا تضم هذه الجبال جميعاً ، وتمتد غربها بقدر ماتمتد شرقيها .

والإقليم الذى تشغله الآن ولايات الاتحاد الأربع والعشرون ، والأقاليم الثلاثة الكبرى التى لم تصل بعد إلى مرتبة الولايات ، على الرغم ممن بها من سكان كثيرين ، هذه الأقاليم كلها تبلغ مساحتها ١٣١,١٤٤ فرسخاً مربعاً مما يعادل مساحة فرنسا خمس مرات . وإنا لنجد التربة فى نطاق هذه الحدود ، ودرجة الحرارة ، ومنتجات البلاد ، كلها منوعة كل التنوع . والإقليم الفسيح المترامى الأطراف الذى تقطنه الجمهوريات الإنجلو أمريكية جعل الناس يرتابون فى إمكان صيانة اتحادهم هذا . وينبغى أن نلاحظ هنا أنه قد تظهر فى بعض الأحيان مصالح متضاربة فى مختلف المديريات ، التى تتكون منها إمبراطورية واسعة ، وكثيراً ما تنتهى هذه المصالح المتضاربة بانشقاق سافر ، فيكون اتساع البلاد بالغ الضرر ببقاء الدولة وسلامة كيانها . ولكن إن كان السكان فى هذه الأقاليم الواسعة متحدين وغير منشقين بعضهم على بعض من جراء تعارض المصالح وتضاربها ، كان اتساع رقعة الإقليم ملائما لازدهارها ، لأن وحدة الحكومة تعاون على الاستكثار من تبادل المحصولات المختلفة وتزيد فى قيمتها بالعمل على تيسير تصريفها وبيعها .

والحق أنه من السهل أن نجد مصالح شتى فى مختلف أجزاء الاتحاد ، ولكنى لا أعرف أجزاء منه يعادى بعضها بعضاً . فالولايات الجنوبية تكاد تقتصر على الشئون الزراعية ، على حين تشتغل الولايات الشمالية بالتجارة وبالصناعة . أما ولايات الغرب فزراعية وصناعية معاً . وتشمل محصولات الجنوب الدخان والأرز والقطن والسكر . أما محصولات الشمال والغرب فتشمل القمح والأذرة . تلك مصادر شتى للثروة ، ولكن الاتحاد هو الوسيلة إلى فتح أبواب هذه المصادر كلها للجميع ، وجعلها نافعة لهم .

ويقوم الشمال بنقل محصولات الأمريكيين الإنجليز على السفن إلى كل أجزاء العالم ، ويستورد محصولات بلاد العالم إلى الاتحاد . وظاهر أن هذا الشمال يهتم بالمحافظة على قيام الاتحاد بشكله الحاضر ، حتى يظل عدد المنتجين والمستهلكين أكبر عدد ممكن . ولا يخفى أن الشمال أكبر عامل طبيعى فى المواصلات بين جنوب الاتحاد وغربه من جهة ، وبين سائر العالم من جهة أخرى . فلا غرو أن اهتم بالاتحاد وبازدهار الجنوب والغرب حتى تظل كلها تزود مصانعه بالمواد الغفل ، وتملأ سفنه بمختلف السلع .

أما الجنوب والغرب فيهتمان اهتماماً مباشراً بالمحافظة على كيان الاتحاد وبازدهار الشمال ، إذ لا يخفى أن معظم غلات الجنوب تصدر إلى ما وراء البحار ، ومن ثم كان هو

والغرب بحاجة إلى مصادر الشمال، ويهمهما كذلك أن يكون للاتحاد أسطول قوى كى يحميها حماية ناجعة. فليس للجنوب، ولا للغرب أى سفن ولكنهما يعاونان راضين فى نفقات البحرية. فإذا ما حدث وحاصرت أساطيل أوربا موانى الجنوب ودلتا المسيسبى، فما عسى أن يكون مصير أرز الكارولينتين (كارولينا الشمالية وكارولينا الجنوبية)ودخان فرجينيا، ومصير السكر والقطن اللذين يزرعان فى وادى المسيسبى؟ ومن ثم كان الاتحاد يعاون على صيانة المصالح المادية التى تشترك فيها الولايات المتحدة كلها.

وبغض النظر عن هذه الفائدة التجارية، فالجنوب والشرق يستمدان فوائد سياسية جليلة من جراء اتحادهما الواحد بالآخر وبالشمال. هذا، ويضم الجنوب عدداً ضخماً من الرقيق أضحى لكثرته مخيفاً مفزعاً، ولسوف يكون مصدر فزع أشد فى المستقبل. أما ولايات الغرب فتشغل وادياً واحداً فحسب، والأنهار التى تخترق أقاليمها تنبع من جبال روكى أو جبال الأليجانى، وتصب فى نهر المسيسبى الذى يحمل أموالها إلى خليج المكسيك. وبذا تكون الولايات الغربية مفصولة كل الفصل، بفضل موقعها عن تقاليد أوربا وحضارة الدنيا القديمة. أما سكان الجنوب فمدفوعون إلى تأييد الاتحاد حتى يستفيدوا من حمايته لهم من السود، وأما سكان الغرب، فكى لا يعزلوا عن الاتصال الحر بسائر أجزاء العالم، ويحصروا فى قفار أمريكا الوسطى. ولا يسع الشمال إلا أن يرغب فى الاحتفاظ بالاتحاد الأمريكى، كى يظل كما هو الآن حلقة الاتصال بين هذا الجزء الواسع المترامى الأطراف وبين سائر أقطار العالم.

وهكذا يتضح لنا أن مصالح جميع أجزاء الاتحاد المادية متصلة بعضها ببعض أوثق اتصال. وهذا الاتصال يصدق كذلك على تلك الآراء والعواطف التى لا بأس من أن نسميها بمصالح الناس غير المادية.

يكثر سكان الولايات المتحدة من التحدث عن شدة تعلقهم ببلادهم، إلا أنى أعترف للقراء بأنى لا أثق بتلك الوطنية التى تحسب لكل شىء حسابه وتقوم على المصلحة الشخصية، والتى قد يقضى عليها أى تغيير يطرأ على هذه المصلحة، ولا أنا أعلق أهمية كبيرة على لغة الأمريكيين عندما يبدون فى أحاديثهم القومية، نيتهم فى الاحتفاظ بالنظام الفدرالى (الاتحادى) الذى اختاره أجدادهم. إن الحكومة لتستطيع أن تحتفظ بسلطانها قائماً على عدد كبير من المواطنين، برضى الناس الفطرى غير الإرادى إلى حد ما، والناشىء عن تماثل المشاعر وتقارب الآراء أكثر مما تستطيع أن تحتفظ به برضاهم الإرادى القائم على التروى والتفكير. ولست أسلم أبداً بأن الناس يستطيعون أن يُكَوِّنوا مجتمعاً أو هيئة اجتماعية بمجرد أنهم يطيعون رئيساً واحداً، وقوانين واحدة. فالجماعة لا يمكن أن تتكون إلا عندما ينظر عدد كبير من الناس إلى طائفة كبيرة من الأمور من وجهة نظر واحدة، وكذا عندما تكون آراؤهم واحدة فى كثير من الموضوعات، وعندما توحى الأحداث المختلفة إلى عقولهم بنفس الآراء والانطباعات.

وسرعان مايدرك المراقب الذى يدرس ما يجرى فى الولايات المتحدة ، على أساس هذا المبدأ ، أن سكانها ، وإن انقسموا أربعاً وعشرين دويلة ذات سيادة فما زالوا يكونون شعباً واحداً فحسب . وقد ينساق المراقب إلى إدراك أن الاتحاد الأمريكى الإنجليزى جماعة متحدة حقاً ، أكثر من اتحاد بعض أمم أوربا التى تعيش تحت سلطان تشريع واحد وملك واحد .

ومع أنه عند الأمريكيين الإنجليز عدد من الطوائف الدينية فنظرتهم إلى الدين واحدة ؛ ومع أنهم لايتفقون دائماً على الخطوات التى تؤدى أكثر من غيرها إلى الحكم الرشيد ، ويختلفون بشأن بعض أشكال الحكومة التى يحسن الأخذ بها ، فهم يجمعون كل الإجماع على المبادىء العامة التى ينبغى أن تسيطر على الجماعة البشرية . فمن ولاية مين شمالا إلى الفلوريدتين جنوباً ، ومن « الميسورى » إلى المحيط الأطلسى ، يعد الشعب مصدر كل سلطة شرعية . وهم يأخذون كلهم بنفس الأفكار التى تتصل بالحرية والمساواة ، وحرية الصحافة وحق عقد الاجتماعات ، ونظام المحلفين ، ومسئولية الموظفين الحكوميين .

فإذا ما انتقلنا من آرائهم الدينية والسياسية إلى المبادىء الأخلاقية والفلسفية التى تنظم شئونهم فى الحياة اليومية العادية وتحكم سلوكهم ، وجدنا فيها كذلك نفس الوحدة والاطراد . فالأمريكيون الإنجليز يعترفون بما لعقل الجماعة من سلطان أدبى ، كما يعترفون بما للمواطنين فى جملتهم من السلطة السياسية ، ويؤمنون بأن الرأى العام خير حكم بين ما هو مشروع وقانونى ، وبين ما هو محرم وممنوع ، بين الحق والباطل . وتعتقد الكثرة منهم أن الإنسان إذا سار وراء ما تقتضيه مصلحته الشخصية ، وفهم هذه المصلحة على وجهها الصحيح ، فإنه سيعمل العدل والصالح . ويعتقدون أن كل إنسان ولد وله الحق فى أن يحكم نفسه بنفسه ، وليس لأحد الحق فى أن يضغط على بنى جنسه ويجبرهم أن يكونوا سعداء . وكلهم يؤمن كل الإيمان بقابلية الإنسان للكمال ، ويعرفون أن نشر التعليم أمر لايمكن أن يكون إلا نافعاً بالضرورة ، وأن عواقب الجهل وخيمة . ويعدون المجتمع هيئة فى حالة تحسن وتقدم ، والبشرية منظراً متغيراً ليس فيه شىء ثابت دائم ، وهو مايجب أن يكون ، ويسلمون بأن ما يبدو لهم اليوم صالحاً ، قد يحل محله ما هو خير منه فى الغد . هذا ، ولست أذكر كل هذه الآراء على أنها حق كلها وإنما أذكرها على أنها آراء أمريكية ليس إلا .

لم توحد هذه الآراء المشتركة الأمريكيين الإنجليز وتربطهم بعضهم ببعض فحسب ، ولكنهم يفترقون عن سائر الأمم بما يشعرون به من كبرياء . ففى الخمسين سنة الأخيرة لم يدخر أى جهد فى إقناع سكان الولايات المتحدة بأنهم الشعب الوحيد المتدين المستنير الحر . فهم يعلمون أن مؤسساتهم الديمقراطية تزدهر ، على حين تفشل مؤسسات غيرهم . فلا غرو إن كانوا يرون رأياً سامياً فى تفوقهم هذا ، ولا يبعد أن يشعروا بأنهم نوع مختلف متمايز عن سائر البشر .

وهكذا ، ليست الأخطار التى تهدد الاتحاد الأمريكى مما ينشأ عن تنوع المصالح أو الآراء ، بل تنشأ عن اختلاف شخصية الأمريكيين وتباين أهوائهم . فسكان أقاليم الولايات المتحدة المترامية الأطراف يكادون أن يكونوا جميعاً من أصل واحد ولكن المناخ ، وبخاصة الرق ، قد أوجد فيهم فروقاً بارزة بين المستوطن البريطانى القاطن فى الولايات الجنوبية ، وزميله فى الولايات الشمالية . ويعتقد الأوربيون أن الرق قد جعل مصالح جزء من « الاتحاد » ضد مصالح الأجزاء الأخرى منه ، ولكنى لم أجد الحالة على هذه الصورة . فالرق لم يخلق فى الجنوب مصالح تتعارض مع مصالح أهل الشمال ، ولكنه أثر فى أخلاق أهالى الجنوب وغير من عاداتهم .

سبق أن بينت ما للرق من تأثير فى قدرة أمريكيى الجنوب التجارية ، وقد امتد هذا التأثير نفسه إلى آدابهم فى السلوك . فالعبد خادم لايحتج أبداً على سيده ولا يعارضه فى شىء ، ويذعن لكل مطالبه منه دون أن يشكو . إنه قد يغدر بسيده فى بعض الأحيان فيغتاله ، ولكنه لايقاومه أبداً . وفى الجنوب أسرات يبلغ بها الفقر مبلغاً لايمكنها معه أن تقتنى أحداً من الرقيق . فالمواطن فى ولايات الجنوب ينقلب منذ طفولته حاكماً بأمره فى المنزل ، فإنه قد ولد هنا ليأمر وينهى ؛ وتلك هى أول فكرة تستقر فى ذهنه ، كما أن أول عادة تنغرس فيه أنه يحكم من غير أن يجد لحكمه مرداً . فتربيته تفيض عليه سمات الرجل الصلف المتسرع الحاد الطبع العنيف ، المتحمس لرغباته وشهواته ، الذى لايصبر على ما يعترض سبيله من عقبات وعراقيل ، ولكن همته سرعان ما تثبط إن لم يوفق فى أول محاولة من محاولاته للتغلب على ما يصادفه فى سبيله من عقبات .

أما الأمريكى الذى يعيش فى الشمال ، فلا يرى منذ صباه أحداً من العبيد حوله ، بل ولا يقوم على خدمته أحد من الخدم الأحرار . لأنه مضطر عادة إلى أن يؤدى حاجاته بنفسه . فمنذ يحل هذا العالم يجد فكرة الضرورة تواجهه من كل جانب ، وسرعان ما يدرك مدى قدراته الطبيعية ويعرفها حق المعرفة ؛ فلا يخطر بباله أبداً أن يخضع بالقوة كل من يقف فى سبيله ، ويعلم أن خير وسيلة للحصول على مساعدة بنى وطنه أن يكسب رضاهم . فلا غرو أن أضحى صبوراً متروياً ، سمحاً ، لايندفع فيما يعمل ، ولكنه يثابر ، ويدأب على تحقيق أهدافه .

إن حاجيات الحياة الملحة الضرورية موفورة دائماً فى الولايات الجنوبية فلا حاجة بالسكان إلى أن يشغلوا بالهم بهموم الحياة المادية ، فقد أعفاهم منها سواهم ، فلاعجب إذن أن اتجه خيالهم إلى أغراض أخرى أكثر استرعاء للنفس وأقل تحديداً . فالأمريكى القاطن فى الجنوب مغرم بالعظمة ، والترف ، والشهرة والمرح ، وانتهاب اللذات ، ولاسيما بالكسل . فليس ثمة شىء يحمله على بذل أى جهد فى سبيل كسب رزقه ، وإذ ليس له مشاغل ضرورية تشغله ، فقد استسلم للكسل ، ولم يحاول أن يضطلع بعمل شىء نافع .

هذا ، والمساواة فى الحظوظ ، وعدم وجود الرق فى الشمال تدفعان السكان إلى الانهماك فى الشئون المادية التى يستهين بها سكان الجنوب البيض ويزدرونها . فقد تعلم سكان الشمال هؤلاء منذ نعومة أظفارهم أن يكافحوا ضد العوز والحاجة ، وأن يضعوا الثروة فوق كل الملذات العقلية أو القلبية ، فتفاصيل الحياة التواقة قد ثلمت حدة خيالهم ، فما لديهم من الآراء ، أقل مما لدى سكان الجنوب عدداً ، وعمومية ، ولكنها آراء عملية أكثر ، ويغلب عليها الوضوح والدقة . ولما كان رغد العيش هدف كل مجهود ، فقد توافر لهم الرخاء كل التوافر ، فاستغلوا الطبيعة والإنسان خير استغلال من الوجهة المالية ، ووجهت الجماعة كلها بمهارة إلى التعاون على إسعاد كل عضو من أعضائها وتوفير الرخاء له ، على حين كانت أثرة الفرد مصدر السعادة العامة للجميع .

فليس لدى الأمريكى الذى يعيش فى الشمال خبرة فحسب ، بل لديه كذلك العلم والمعرفة ، ومع ذلك فهو لا يقدر العلم من حيث هو متعة وتسلية ، بل يقدره من حيث هو وسيلة ليس إلا ، فتراه يحرص كل الحرص على أن يلم بما له من تطبيقات نافعة . وأما فى الجنوب فالأمريكى يميل إلى أن يعمل فى تهور واندفاع ، وهو أمهر من زميله وأصرح منه وأكرم ، وأكثر إقبالاً على الأمور العقلية ، فضلاً عن أن ذهنه أكثر توقداً . فمع أن الأول يستمتع بدرجة عظيمة من حيث النشاط وسلامة الذوق ، وسعة المعلومات ، والمقدرة العامة ، فإن به الصفات الطيبة والسيئة ، التى يتسم بها أفراد الطبقة الوسطى من الناس ، على حين أن لدى الثانى ما لدى كل الأرستقراطية ، من أذواق وميول ، وضروب التعصب ، ونقاط الضعف وسعة العقل .

فإذا انضم اثنان إلى جماعة ما ، وكان لهما إلى حد ما نفس المصالح ونفس الآراء ولكنهما يختلفان خلقاً ومعلومات ، وحضارة ، فمن المحتمل كل الاحتمال ألا يتفقا ؛ إن هذه الملاحظة لتصدق كذلك على كل جماعة من الأمم .

فالرق لا يهاجم الاتحاد الأمريكى إذن مباشرة فى مصالحه ، بل يهاجمه فى آدابه وأخلاقه بطرق غير مباشرة .

كان عدد الولايات التى وافقت على مبدأ «الاتحاد الفدرالى» فى سنة ١٧٩٠ ثلاث عشرة ولاية ، أما الآن فيتكون الاتحاد من أربع وعشرين ولاية ، وازداد عدد السكان أربعة ملايين سنة ١٧٩٠[1] أكثر من ثلاثة أضعاف فى مدى أربعين عاماً ، فقد بلغ فى سنة ١٨٣٠ ثلاثة عشر مليوناً على وجه التقريب ، فالتغيرات العظيمة التى من هذا القبيل تتم عن غير خطر .

---

(١) كان عدد سكان الولايات المتحدة الثلاث عشرة هذه فى سنة ١٧٩٠ هو ٣ ٩٢٩ ٢٣٨ وكان عددهم بحسب إحصاء سنة ١٨٣٠ هو ١٢ ٨٥٠ ١٠٥ أما عددهم الآن بحسب إحصاء سنة ١٩٦٠ فقد بلغ ١٧٩ ٣٢٣ ١٧٥ وأما عدد الولايات فقد بلغ الخمسين ولاية .

إن للجماعة المؤلفة من دويلات عدة، مثل ما للجماعة المؤلفة من أفراد، ثلاث فرص للبقاء والاستمرار: حكمة أعضائها، وضعف أفرادها، وعددها المحدود؛ فالأمريكيون الذين يغادرون شواطىء المحيط الأطلسى ليتوغلوا فى مجاهل الغرب لايعدون أن يكونوا مغامرين لايستطيعون الصبر على أى قيد، وهم نهمون كل النهم من حيث الثروة والمال، وكثيراً مايكونون ممن طردوا من الولايات التى ولدوا فيها ونشأوا. فعندما يصلون إلى البرارى لايكون أحد منهم يعرف الآخر، فلاتقاليد لهم، ولا أى شعور بروابط الأسرة، ولا قوة الأسوة الحسنة يمكن أن تحد من إسرافهم؛ سلطان القوانين عليهم ضعيف، وأضعف منه سلطان الآداب العامة. فالمستوطنون الذين يفدون على وادى المسيسبى باستمرار هم إذن، من كل وجه من الوجوه، دون أولئك الأمريكيين الذين استوطنوا أجزاء الاتحاد الأخرى. ومع ذلك فلهم نفوذ كبير فى مجالس الاتحاد، وقد يبلغون إلى تولى رياسة الحكومة فى الجمهورية قبل أن يعرفوا كيف يحكمون أنفسهم.

وكلما زاد ضعف أفراد الأطراف المتعاقدة، ازدادت فرص الاتحاد فى البقاء؛ لأن سلامة هذه الأطراف تتوقف عندئذ على اتحادها. ففى سنة ١٧٩٠ عندما كانت أكثر الجمهوريات الأمريكية ازدحاماً بالسكان لاتشتمل على أكثر من خمسمائة ألف نسمة كانت كل واحدة منهن تشعر بضآلتها من حيث هى أمة مستقلة، وكان هذا الشعور يجعل الاتفاق مع السلطة الفدرالية ميسوراً. ولكن عندما يزداد عدد السكان فى إحدى الولايات ليبلغ المليونين مثلاً، كما بلغ فى ولاية نيويورك التى تبلغ مساحتها مايعادل ربع مساحة فرنسا ذاتها، تشعر هذه الولاية بقوتها إذن، وإن ظلت تؤيد الاتحاد على اعتبار أنه مفيد، ولازدهارها، وإن لم يعد أمراً ضرورياً لوجودها. وهى مع قبولها بأن تظل عضواً فيه، ترمى إلى أن تكون لها الغلبة فى المجالس الفدرالية والسيطرة عليها. فمجرد ازدياد الولايات من حيث عدد سكانها يضعف الأواصر التى تربطها بعضها ببعض. فكل الناس الذين وضعوا فى وجهة نظر واحدة لايمكن أن ينظروا إلى الأشياء عينها بطريقة واحدة، فما بالك بهم إن كانت وجهة النظر مختلفة؟ لاشك فى أن وجهات نظرهم تزداد اختلافاً. فكلما ازداد عدد الجمهوريات الأمريكية قلت إذن الفرص التى أمامها للإجماع فى الشئون التشريعية. أما فى الوقت الحاضر (أى فى العشرة الرابعة من القرن الماضى) فإن مصالح أجزاء الاتحاد المختلفة ليست بالمتباينة فى نظرنا. ولكن من ذا الذى يستطيع أن يرى بثاقب نظره البعيد تلك التغيرات المنوعة التى قد تتم فى المستقبل فى بلاد تنشأ فيها مدن جديدة كل يوم، وتتكون ولايات جديدة فى كل سنة تقريباً؟

فمنذ نزول الإنجليز المستعمرين لأول مرة، كان عدد السكان يزداد نحو الضعف كل اثنتين وعشرين سنة. ولست أعرف أسباباً ما ترجح وقوف نسبة ازدياد عدد السكان من الأمريكيين الإنجليز هذه، فى المائة السنة المقبلة. وفى اعتقادى أنه قبل أن يمضى هذا

الوقت سيبلغ عدد السكان فى أقاليم الولايات المتحدة .. والدويلات التى تتبعها أكثر من مائة مليون نسمة موزعين على أربعين ولاية . ولا يسعنى إلا أن أسلم بأن مصالح هذه المائة مليون من الناس ليست متعارضة، بل أرى أنهم، على العكس من ذلك، يتساوون فى الاهتمام ببقاء الوحدة قائمة بينهم . ومع ذلك فلازلت أقول إنهم، بسبب أنهم مائة مليون إنسان، يكونون أربعين أمة متمايزة تتفاوت فى القوة، فإن استمرار الحكومة الفدرالية لا يمكن أن يكون إلا حادثاً سعيداً .

ومهما كان إيمانى بقابلية الإنسان للكمال عظيماً، فإنى لاأزال أرفض أن أعتقد بدوام حكومة يطلب منها أن توحِّد أربعين أمة مختلفة، ومنتشرة فى إقليم واسع مساحته مساحة نصف أوربا، وأن تتحاشى كل منافسة وطموح وصراع فيما بينها، وتوجه نشاطها فى المستقبل نحو تحقيق أغراض واحدة بعينها - اللهم إلا إذا تبدلت الطبائع وتغير الناس تغيراً شاملاً .

ولكن أكبر خطر يتعرض له اتحاد الولايات المتحدة، من جراء تزايده وتوسعه إنما ينشأ من تنقل قواه الداخلية المستمر وتغيرها . فالمسافة بين بحيرة سوبيرور وخليج المكسيك تزيد على ألف ومائتى ميل، فى اتجاه مستقيم، وتنشى حدود الولايات المتحدة على امتداد هذا الخط الهائل كله، فتقع تارة فى نطاق هذا الخط وتارات كثيرة وراءه مسافات شاسعة فى البرارى والقفار . وقد حسب الحاسبون أن البيض كانوا يتقدمون كل سنة سبعة عشر ميلاً على طول هذه الحدود الهائلة، وكانوا يواجهون فى تقدمهم، من حين إلى حين عقبات تعطلهم مثل إقليم صحراوى جدب، أو بحيرة، أو شعب من شعوب الهنود الحمر . وعندئذ يضطرون إلى التوقف برهة من الزمان . ويتقوس طرفا هذا «الطابور» المتقدم وينحنيان حول نفسيهما . وحالما يلتقيان يعود «الطابور» ويتجه فى سيره إلى الأمام . فتقدم الجنس الأوربى التدريجى المستمر هذا نحو جبال روكى يشبه حدثاً من تلك الأحداث المشمولة بالعناية الإلهية . فهو أشبه بطوفان من الناس يظل يعلو باستمرار، وتدفعه يد الله إلى الأمام باستمرار .

فوراء هذه الطلائع الأمامية من المستوطنين الفاتحين شيدت مدن، وأقيمت ولايات مترامية الأطراف . ولم يكن بها فى سنة ١٧٩٠ غير بضعة آلاف من الرواد مبعثرين فى أودية المسيسبى، أما اليوم فإن هذه الأودية نفسها تشمل من السكان ما كان يشمله الاتحاد كله فى سنة ١٧٩٠، ويبلغ عددهم قرابة الأربعة ملايين . فقد تأسست مدينة واشنطن سنة ١٨٠٠ وسط الاتحاد نفسه؛ ولكن ما حدث من التغيرات الكبيرة فى هذه المدينة جعلها تقع الآن فى طرف من أطراف الاتحاد البعيدة . فكى يأخذ نواب الولايات الغربية البعيدة أماكنهم فى الكونجرس يضطرون إلى قطع مسافة طويلة تقرب من المسافة التى بين باريس وفينا .

وتندفع ولايات الاتحاد كلها فى الوقت نفسه نحو الازدهار والرخاء ولكن لا يتيسر لها جميعاً أن تنمو وتزدهر بسرعة واحدة. ففى شمال الاتحاد تمتد السلاسل المتفرعة من سلسلة جبال الأليجانى منفصلة بعضها عَن بعض حتى تصل إلى المحيط الأطلسى، وتكون طرقاً فسيحة، ومرافىء كبيرة مهيأة لاستقبال أكبر السفن حجماً. ولكننا نجد الساحل الممتد من نهر البوتوماك بحذاء الشاطىء حتى مصب نهر المسيسبى، رملياً ومنبسطاً. ففى معظم مصبات الأنهار التى فى هذا الجزء من الاتحاد عوائق تعطل الملاحة فيها، وليست الموانى القليلة التى بين تلك الخلجان الصغار، ذات عمق واحد، وما تقدمه من تسهيلات للتجارة، أقل بكثير مما تقدمه موانىء الشمال.

إن أول سبب من أسباب القصور، وهو سبب طبيعى، يتصل بسبب آخر، ينشأ عن القوانين. فقد رأينا أن الرق الذى قد ألغى فى الشمال، لا يزال قائماً فى الجنوب. وسبق أن أشرنا إلى ماله من عواقب وخيمة تهدد نجاح المزارع نفسه، صاحب الأرض والرقيق.

يتفوق الشمال إذن على الجنوب فى التجارة والصناعة كلتيهما، وكانت نتيجة هذا التفوق الطبيعية سرعة ازدياد عدد السكان، وتزايد الثروات فى نطاق حدوده. فقد أصبحت الولايات التى على شواطىء المحيط الأطلسى فعلا نصف أمم، ومعظم الأراضى يملكها أصحابها، فلم يعد فى وسعها إذن أن تستقبل عدداً كبيراً من المهجرين، كما تستقبلهم الولايات الغربية، حيث لا يزال المجال متسعاً اتساعاً كبيراً لجهود الإنسان. فوادى المسيسبى أكثر خصباً من شواطىء المحيط الأطلسى. فهذا السبب، بالإضافة إلى غيره من الأسباب الأخرى، يساعد على دفع الأوربيين نحو الغرب؛ وهذه حقيقة يمكن التدليل عليها بقوة الأرقام. فقد تبين أن مجموع سكان الولايات المتحدة قد زاد ثلاثة أضعاف فى مدى أربعين عاماً، على حين أن عدد سكان الولايات المجاورة «لوادى المسيسبى»، قد ازداد إحدى وثلاثين مرة فى مدى الأربعين سنة نفسها.

لقد ظل مركز القوة الفدرالية يتغير باستمرار. فمنذ أربعين سنة كانت أغلبية المواطنين فى الولايات المتحدة قد استقرت على شواطىء المحيط حوالى البقعة التى تقوم فيها مدينة واشنطن الآن. أما اليوم فمعظم الشعب يتجه إلى داخل البلاد، ونحو الشمال. ولن تمضى عشرون سنة حتى يكون أكثرهم قد استقروا وراء جبال الأليجانى وفى غربيها. وإن ظل الاتحاد قائماً، فلا يخفى أن حوض نهر المسيسبى المعروف لخصوبة تربته واتساع رقعته؛ سيكون المركز الدائم للحكومة الفدرالية. ففى ثلاثين سنة أو أربعين سيأخذ هذا الجزء من البلاد مركزه الطبيعى، ومن السهل أن نقول أن نسبة عدد سكانه إذا قورن بعدد سكان شواطىء المحيط الأطلسى ستكون كنسبة ٤٠ - ١١ فى الجملة. وفى بضع سنوات ستفقد الولايات التى أنشأت الاتحاد، القدرة على توجيه سياسته وإدارته، وسيسود سكان وادى المسيسبى المجالس الفدرالية.

إن انجذاب القوة الفدرالية وتكاثرها نحو الشمال الغربى باستمرار يتجليان فى إحصاء عدد السكان العام الذى يعمل كل عشر سنوات ويتحدد فيه من جديد عدد النواب الذين ترسلهم كل ولاية إلى الكونجرس. ففى سنة ١٧٩٠ كان عدد نواب فرجينيا فى الكونجرس تسعة عشر نائباً، وظل هذا العدد يزداد حتى بلغ سنة ١٨١٣ الثلاثة والعشرين، ثم منذ هذا الوقت أخذ يتناقص. ففى سنة ١٨٣٣ لم تنتخب فرجينيا سوى واحد وعشرين نائباً. وفى الفترة عينها سارت نيويورك فى اتجاه عكس هذا الاتجاه، فقد كان لها عشرة نواب سنة ١٧٩٠، أما فى سنة ١٨١٣ فقد بلغ عددهم سبعة وعشرين، ثم أربعة وثلاثين فى سنة ١٨٢٣، وأربعين فى سنة ١٨٣٣، على حين كان لولاية أوهايو ممثل واحد فى سنة ١٨٠٣ ولم تأت سنة ١٨٣٣ حتى بلغ عدد ممثليها تسعة عشر عضواً.

من الصعب أن يتصور المرء أمة غنية وقوية تتحد اتحاداً باقياً مع أخرى فقيرة وضعيفة، حتى ولو ثبت أن قوة الأولى وثروتها ليستا السبب فى ضعف الأخرى وفقرها. ولكن صيانة الاتحاد هذا تصبح مع ذلك أشق عندما تكون قوة أحد الطرفين آخذة فى التناقص وقوة الطرف الآخر فى الازدياد. فهذه الزيادة السريعة غير المتناسبة التى حدثت فى بعض الولايات تهدد استقلال البعض الآن. فقد تنجح نيويورك بمن فيها من المليونى ساكن، وبالأربعين نائباً الذين يمثلونها، فى أن تملى إرادتها على الولايات الأخرى فى الكونجرس؛ وحتى إن لم تحاول الولايات القوية أن تضغط على الولايات الصغيرة لظل الخطر مع ذلك قائماً، إذ يوجد فى إمكان الفعل، بقدر مايوجد فى الفعل نفسه. فالضعيف لايثق دائماً بعدالة القوى ولا بحججه. أما الولايات التى لاتزداد بمثل السرعة التى يزداد بها غيرها فتنظر إلى الولايات المحظوظة بعين الريبة والحسد. فلا غرو أن حدث فى النفوس قلق عميق وتهيج غامض، وكلاهما ملحوظ فى الجنوب، وهو نقيض بارز كل البروز للثقة والازدهار اللذين فى أجزاء الاتحاد الأخرى. وأظن أن الموقف العدائى الذى وقفه الجنوب حديثاً لايعزى إلى سبب غير هذا السبب. فسكان الولايات الجنوبية هم دون سائر الأمريكيين، أكثر الناس اهتماما بصيانة الاتحاد. فلا شك فى أنهم سيعانون أكثر من سواهم إذا ما تركوا وشأنهم. ومع ذلك فإن الولايات الجنوبية هذه هى التى تهدد بفصم عرى الاتحاد. وليس يعز على أحد أن يدرك أن الجنوب الذى أعطى الاتحادأربعة رؤساء للجمهورية، والذى يرى أنه آخذ فى فقدان نفوذه فى الاتحاد، وأن عدد ممثليه فى الكونجرس يتناقص سنة بعد أخرى، على حين يزداد عدد ممثلى الولايات الشمالية والغربية. فالجنوب الممتلىء بالسكان الحادّى الطبع، السريعى الغضب، يزداد كل يوم حنقاً وفزعاً. فسكانه يفكرون فى موقفهم الحاضر، ويتذكرون ماكان لهم من ماض، بشىء من القلق السوداوى الذى يشعر به الناس الذين يشتبهون فى وجود ظلم وتعسف، فإن هم رأوا أن قانوناً من قوانين الاتحاد جاء صراحة فى غير مصلحتهم احتجوا عليه وقالوا عنه إنه جاء من نتائج سوء استخدام السلطة، وإن لم تصادف احتجاجاتهم الشديدة آذاناً مصغية لوحوا بالانفصال عن مجتمع يرهقهم بالتكاليف والأعباء، ويحرمهم الاستمتاع

بالمنافع . قال سكان ولاية كارولينا فى عام ١٨٣٢ «إن التعريفة تدر الثراء على الشمال ، على حين أنها تجر الخراب على الجنوب . فإن لم يكن هذا صحيحاً فإلام نعزو تزايد قوة الشمال وثروته باستمرار ، على ما فى جوه من قسوة ، وفى تربة بلاده من قحولة ، على حين أن الجنوب الذى يوصف بأنه جنة أمريكا يتدهور بسرعة .»

فلو أن التغييرات التى وصفناها حدثت تدريجياً ، حتى صار كل جيل على الأقل ، يجد الوقت الكافى ليختفى فيه مع نظام الأشياء وأوضاعها التى ألف أن يعيش فيها ، لكان الخطر أقل وأهوَن . ولكن المجتمع يتقدم فى أمريكا بسرعة مذهلة حتى يكاد تقدمه هذا يكون ثورة وانقلاباً . فقد يعيش المواطن منهم حتى يرى ولايته قد تبوأت مركز الصدارة فى الاتحاد ، ثم إذا بها انقلبت ضعيفة لاحول لها ولا قوة فى المجالس الفدرالية . وقد عرف أن جمهورية أمريكية إنجليزية قد نمت بسرعة كما ينمو الطفل فمرت من الميلاد إلى الطفولة فالنضج فى مدى ثلاثين عاماً . ومع ذلك فيجب ألا يتوهم أحد أن الولايات التى تفقد سيطرتها فى المجالس تفقد كذلك سكانها وثروتها ، فليس ثم حد يفرض على ازدهار الولاية ورخائها ، بل إنهما ليزدادان فيها بأسرع مما يزدادان فى أية مملكة أوربية . ولكن الناس فيها يظنون أنهم قد افتقروا لأن ثروتهم لا تنمى بالسرعة نفسها التى تنمى بها ثروات جيرانهم ، ويتوهمون أن قوتهم قد زالت عنهم لأنهم أصبحوا فجأة على اتصال بقوة أعظم من قوتهم . وهكذا يتبين أنهم إنما قد أوذوا فى شعورهم وفى أهوائهم لا فى مصالحهم ، ولكن فى هذا مايكفى لتعريض صيانة الاتحاد للخطر ؛ فلو أن الملوك والشعوب جعلت تعنى منذ بداية العالم برعاية مصالحها وحدها لما كان ثمة مجال لقيام الحروب بين بنى الإنسان .

فلاغرو أن كان ازدهار الأحوال فى الولايات المتحدة مصدر أشد الأخطار التى تهددها ، لأنه قد يخلق فى بعض الولايات الأعضاء فى الاتحاد شيئاً من تلك النشوة التى تصحب كل زيادة فى الحظ والثروة تأتى فجأة وعلى غير انتظار ، كما أنه قد يستثير فى أخرى انفعالات الحسد وسوء الظن والريبة والتحسر التى ترافق زوال الثروة عادة . فالأمريكيون ينظرون إلى تقدمهم هذا غير العادى بكثير من الزهو والفخار ، على أنهم لو نظروا إليه بالأسف والفزع لكانوا أعقل وأحزم . فلابد أن يأتى على الولايات المتحدة وقت تصبح فيه أمة من أعظم أمم العالم ، ولسوف تنتشر ذراريهم فى أمريكا الشمالية كلها . فالقارة التى يسكنونها قارتهم ، ولايمكن أن تفلت من أيديهم . فما الذى يدعوهم إذن إلى الإسراع فى الاستيلاء عليها ، فالثراء والسلطان والشهرة لايمكن أن تكون إلا لهم فى وقت ما فى المستقبل . ولكنهم مع ذلك يندفعون وراء جمع المال كأن لم يعد أمامهم سوى دقيقة واحدة كى تصير الثروة فى أيديهم .

أظننى قد برهنت على أن بقاء الاتحاد الحالى يتوقف كل التوقف على استمرار موافقة

جميع المتحالفين فيه على بقائه . وقد بدأت من هذا المبدأ أبحث عن الأسباب التى قد تدعو بعض الولايات إلى الانفصال عن الأخرى . ومع ذلك فقد يهلك هذا الاتحاد بطريقتين مختلفتين . فقد تختار إحدى الولايات المتحالفة أن تنفصل عن الميثاق ، وبذلك تنفصم عرى الرابطة الفدرالية بالضرورة . وعلى أساس هذا الفرض يصدق معظم ما ذكرته من ملاحظات . أو أن تضيع سلطة الحكومة الفدرالية تدريجياً من جراء نزعة الجمهوريات المختلفة المتحدة إلى استعادة استقلالها . فبعد أن تجرد السلطة المركزية من جميع امتيازاتها الواحدة بعد الأخرى ، وتصبح ضعيفة لا حول لها ولا قوة برضاها الضمنى ، تصير عاجزة عن أن تحقق غرضها ، وعندئذ يهلك الاتحاد الثانى كما هلك الأول بنوع أفن الشيخوخة . فإضعاف الرابطة الفدرالية التدريجى ، ذلك الإضعاف الذى قد يؤدى فى النهاية إلى انحلال الاتحاد ، ظرف قد يترتب عليه عدة عواقب صغرى منوعة ، قبل أن يؤدى إلى إحداث تغيير عنيف مثل هذا العنف . ومع ذلك فقد يظل الاتحاد قائماً على الرغم من أن حكومته قد وصلت إلى درجة من الجمود والضعف تشل الأمة ، وتؤدى إلى إشاعة الفوضى فيها ، وتعطل سير ازدهار البلاد العام ورخائها .

وبعد دراسة الأسباب التى قد تحمل الأمريكيين الإنجليز على التفكك والتفرق ، من المهم أن نبحث ، فى حالة إن كان الاتحاد سيظل قائماً ، وما إن كانت حكومتهم ستستمر فى توسيع مجال عملها أو تعمل على تضييقه ، وعما إن كانت ستصبح أكثر همة ونشاطاً ، أو أكثر ضعفاً وخوراً .

لايخفى أن الأمريكيين يميلون إلى أن ينظروا إلى حالتهم التى هم فيها بشىء من الفزع . فهم يرون أن ممارسة حقوق السيادة تتجه فى معظم أمم العالم إلى التجمع فى أيدى فئة قليلة ، وأنهم يخشون كل الخشية أن يكون هذا مصير الأحوال فى بلادهم . فحتى رجال السياسة أنفسهم يشعرون بهذه المخاوف أو هم يتظاهرون بأنهم يشعرون بها . ذلك لأن المركزية أمر غير مقبول فى أمريكا بأية حال من الأحوال ، ولأنه لايوجد أية وسيلة لاجتذاب الأغلبية أضمن من الشكوى بأن السلطة المركزية تعتدى على سلطة الولايات . فالأمريكيون لم يلحظوا أن البلاد التى فيها مثل هذه النزعة المزعجة إلى المركزية ، بلاد يسكنها شعب واحد مفرد ، على حين أن الاتحاد يتكون من جماعات شتى مختلفة . فهذه الحقيقة تكفى لتفنيد كل الاستنتاجات التى يمكن أن تستنبط بطريقة التمثيل . ولست أخفى عن القارىء ميلى إلى اعتبار هذه المخاوف التى يشعر بها عدد كبير من الأمريكيين مخاوف وهمية . فبدلاً من أن أشاركهم فى فزعهم من مركزية السلطة فى أيدى الاتحاد ، أرى أن الحكومة الفدرالية آخذة فى أن تضعف وتفقد قوتها بشكل واضح . وما أنا بحاجة إلى الالتجاء إلى ذكر أحداث بعيدة للتدليل على صحة هذا القول ، ولكنى ألجأ إلى أحداث وظروف شاهدتها بنفسى عياناً فى وقتنا الحاضر .

فلو أنا تعمقنا بحث ما يجرى الآن فى الولايات المتحدة لاقتنعنا بكل سهولة ويسر بأن هناك نزعتين متعارضتين أشبه بتيارين يسيران فى مجرى واحد ولكن فى اتجاهين متضادين . لقد مضى على الاتحاد الآن خمس وأربعون سنة أزال الزمن فيها كثيراً من ضروب التعصب الإقليمى التى كانت تناوىء قوة الاتحاد فى بادىء الأمر ، وأصبح الشعور الوطنى الذى ربط كل أمريكى بولايته التى ينتمى إليها أقل حدة ، وأصبحت أجزاء الاتحاد المختلفة أكثر مسالمة ومودة ، كلما ازدادت معرفة بعضها ببعض . فالبريد ، وهو وسيلة الاتصال العظمى ، يصل الآن إلى أعماق الغابات ، وأوجدت السفن البخارية وسائل اتصال يومية بين شتى نقط السواحل ، وقامت وسائل نقل بحرية ونهرية بنقل السلع بسرعة فى أنهار البلاد صعوداً وهبوطاً بسرعة لامثيل لها . ولابأس من أن نضيف إلى التسهيلات التى أتاحتها الطبيعة تلك الميول والرغبات القلقة والرغبة فى العمل والانشغال ، ومحبة الكسب ؛ فكلها حوافز تدفع الرجل الأمريكى باستمرار إلى أن يحيا حياة نشيطة ، وتجعله على صلة بسائر إخوانه المواطنين . فتراه يعبر البلاد الآن من كل جهة ، ويزور كل من فيها من مختلف الأقوام . فليس فى فرنسا مديرية يعرف فيها الأهالى بعضهم بعضاً كما يعرف الثلاثة عشر مليوناً من الأمريكيين الذين يعيشون فى أقاليم الولايات المتحدة ، بعضهم البعض .

فمادام الأمريكيون يختلطون بعضهم ببعض فسيزدادون تقارباً وتماثلاً ؛ فتتناقص الفروق الناشئة عن اختلاف المناخ ، والأصل ، والمؤسسات ، ويظل المواطنون يقتربون باستمرار من الطراز العام المشترك . ففى كل سنة يغادر آلاف منهم الشمال ليستقروا فى أجزاء شتى من أقاليم الاتحاد ، حاملين معهم معتقداتهم ، وآراءهم وآدابهم . وإذ كانوا أكثر استنارة من الذين سينزلون بين ظهرانيهم ، فإنهم سرعان مايرتفعون إلى تولى رياسة الشئون ، ويكيفون المجتمع بما فيه مصلحتهم هم . وهكذا تعاون هذه الهجرة المتواصلة من الشمال إلى الجنوب – تعاون – بوجه خاص ، على إدماج الصفات الإقليمية فى خلق قومى واحد . ويبدو أن حضارة الشمال ستكون المعيار المشترك الذى ستأخذ به الأمة جمعاء فى يوم من الأيام .

ازدادت قوة الروابط التجارية التى تربط الولايات المختلفة بعضها ببعض ، بازدياد الصناعة الأمريكية وتقدمها ، وبالاتحاد الذى أصبح يشكل تدريجياً فى رأيهم جزءاً من عادات الأمريكيين . فقد أزاح الزمن الكابوس الذى كان جاثماً على خيال المواطنين سنة ١٧٨٩ . فلم تصبح السلطة الفدرالية ظالمة مرهقة ، ولم تهدم استقلال الولايات ، ولن تخضع المتحالفين لمؤسسات ملكية ، ولم يعمل الاتحاد على إيثار الولايات الصغرى على الكبرى . بل ظل الاتحاد الكونفدرالى يزداد فى عدد سكان ، وفى الثروة والسلطة ، فلا غرو أن اقتنعت بأن العقبات الطبيعية التى تقوم فى سبيل دوام الاتحاد الأمريكى ليست بالعقبات الكأداء ، كما كانت الحال فى سنة ١٧٨٩ ، وبأن أعداء الاتحاد ليسوا بالكثرة التى كانوا بها من قبل .

ومع ذلك فإن درسنا تاريخ الولايات المتحدة فى الخمس والأربعين سنة الأخيرة بمزيد من العناية، لاقتنعنا فى يسر بأن السلطة «الفدرالية» آخذة فى الضعف. وليس من الصعوبة فى شىء تفسير الأسباب التى أدت إلى هذه الظاهرة. فعندما نشر دستور سنة ١٧٨٩ كانت الأمة بين براثن الفوضى، وكان الاتحاد الذى جاء عقب هذا الاضطراب قد أثار الكثير من الفزع والكراهية فى نفوس الناس، ولكنه مع ذلك، نال تأييداً حاراً، لأنه سد حاجة ماسة؛ ومع أنه هوجم فى ذلك الوقت أكثر مما يهاجم الآن، فسرعان ما وصلت القوة الفدرالية إلى ذروة السلطة، شأنها فى ذلك شأن كل حكومة تظفر بالفوز بعد نضال شحذ قوتها، هذا، وقد بدا للناس فى ذلك الوقت أن تفسير الدستور يميل إلى توسيع السلطة الفدرالية لا إلى تقييدها أو إضعافها. وتجلى الاتحاد من عدة وجوه فى مظهر شعب واحد غير منقسم على نفسه، توجهه حكومة واحدة فى شئون السياسة الداخلية والخارجية، ولكن الأمة لم تصل إلى هذه الدرجة من القوة إلا بعد أن سمت على نفسها إلى حد ما.

ولم يهدم الدستور «شخصية» الولايات الفردية، فالجماعات كلها أيًّا كانت طبيعتها، تندفع نحو الاستقلال، تحفزها إليه غريزة خفية فيها، وتتجلى هذه النزعة إلى الاستقلال بارزة فى بلاد مثل أمريكا، حيث كل قرية فيها تشبه جمهورية اعتادت أن تحكم نفسها بنفسها. ومن ثم كان لابد للولايات من أن تبذل مجهوداً كبيراً فى إذعانها للسيادة الفدرالية، ولا شك فى أن كل جهود بذلت فى هذا السبيل مهما كانت ناجحة، ستضعف بالضرورة بتضاؤل الأسباب والظروف التى استدعتها.

ولما وطدت الحكومة الفدرالية سلطتها، استأنفت أمريكا مركزها بين الأمم، وعاد السلام إلى نحومها، كما عادت إليها الثقة المالية، وأعقبت الفوضى حالة ثابتة مستقرة مكنت الناس من الاضطلاع بالمشروعات الصناعية فى حرية واطمئنان. فهذا الرخاء نفسه، هو الذى أنسى الأمريكيين السبب الذى دعا إليه؛ فما أن زال الخطر عنهم حتى زالت معه الهمة والوطنية اللتان مكنتا لهم من مقاومته. فلما تخلصوا مما كان يرهقهم من متاعب وهموم، عادوا سراعاً إلى عاداتهم المألوفة، واستسلموا، دون أية مقاومة، إلى ميولهم الطبيعية؛ ولما خيل لهم أن لم تعد بهم حاجة ماسة إلى قيام حكومة قوية، أخذوا من جديد يرون أن مثل هذه الحكومة مصدر مضايقة وتعب. هذا، وقد ازدهر كل شىء فى ظل الاتحاد، ولم تكن الولايات ميالة إلى التخلى عنه ولكنها أرادت أن تجعل عمل السلطة التى تمثله هنا ضئيلاً هزيلاً بقدر الإمكان - لقد تم الاتفاق على مبدأ الاتحاد العام، ولكن كان ثمة نزعة إلى الاستقلال فى كل جزئية صغيرة، لقد صاروا يسلمون كل يوم فى يسر وسهولة بمبدأ الاتحاد الكونفدرالى ولكنهم قلما كانوا يطبقونه فعلاً. وهكذا أدت الحكومة الفدرالية بما خلقته من نظام، وأوجدته من سلام واطمئنان، إلى تدهورها هى نفسها.

وما أن تجلت نزعة الرأى العام هذه سافرة، حتى شرع زعماء الأحزاب الذين

يعيشون على أهواء الشعب، فى أن يستغلوها ويوجهوها شطر مافيه مصلحتهم، وعندئذ أصبح مركز الحكومة الفدرالية بالغ الحرج فقد ظفر أعداؤها بمحبة الشعب، وصار لهم الحق فى توجيه سياسته، بأن تعهدوا بالعمل على تقليل ماهذه الحكومة من نفوذ. ومنذ ذلك الوقت صارت حكومة الاتحاد مضطرة إلى التراجع كلما نزلت إلى حلبة الصراع مع حكومات الولايات. هذا، وكلما وضع تفسير لمواد الدستور الفدرالى، جاء عادة ضد الاتحاد وفى مصلحة الولايات.

لقد خول الدستور للحكومة الفدرالية أن ترعى المصالح القومية وتكفلها، وكان المعتقد أنه لاتوجد سلطة أخرى أصلح منها للإشراف على إنجاز الإصلاحات الداخلية الكبرى التى تزيد فى سعادة الاتحاد وازدهاره كله وذلك كشق الترع مثلاً. ولكن سرعان ما فزعت الولاياتِ من أن ترى سلطة تستطيع أن تتصرف هكذا فى جزء من أملاكها، وخشيت أن تحصل الحكومة المركزية بهذه الوسيلة على سلطة «أبوية» هائلة فى داخل الولايات، وتمارس نفوذاً، تريد هى أن تحتفظ به لعمالها ووكلائها وحدهم. فقام الحزب الديمقراطى الذى كان يقاوم باستمرار ازدياد السلطة الفدرالية، واتهم الكونجرس بالاغتصاب، كما اتهم الموظف الأول، رئيس الدولة، بالطموح، فارتاعت الحكومة المركزية من هذه الصيحات، وانتهت إلى الاعتراف بأخطائها، وتعهدت أن تحصر نفوذها فى المستقبل فى نطاق الدائرة المرسومة لها.

لقد خول الدستور لحكومة الاتحاد الحق فى أن تعقد المحالفات مع الأمم الأجنبية وكان المألوف أن ينظر إلى القبائل الهندية التى تتاخم مضاربها حدود الولايات المتحدة، على هذا الضوء، أى باعتبارها دولاً أجنبية. فمادام هؤلاء الهمجيون يقبلون أن يتراجعوا أمام تقدم المستوطنين المتحضرين لم يكن ثم مجال لنزاع بشأن الحق الفدرالى. ولكن إذا ما حاولت قبيلة هندية أن تقيم مساكنها فى بقعة معينة، لتستقر فيها طالبت الولايات المجاورة لها بحق ملكيتها لتلك الأراضى. كما طالبت بحق السيادة على سكانها من الأهالى، وسرعان ما كانت الحكومة المركزية تعترف لها بهذين الحقين. وبعد أن عقدت معاهدات مع الهنود بوصفهم أمماً مستقلة تركتهم على أنهم رعايا لمجالس الولايات التشريعية ولاستبدادها.

هذا وقد امتدت بعض الولايات التى تأسست فى أول إنشائها على شواطىء المحيط الأطلسى - امتدت نحو الغرب، إلى غير حد، فى الأقاليم الموحشة التى لم تطأها قدما أوربى من قبل. وعندئذ جعلت الولايات التى سبق أن تعينت حدودها نهائياً بشكل لارجعة فيه، تنظر بعين الطمع إلى الأقاليم الفسيحة المترامية الأطراف التى أضحت مفتوحة أمام جيرانهم. فإرضاء لها وافقت الولايات الأولى على تعيين حدودها، على أن تترك جميع الأراضى التى وراء أقاليمها للاتحاد فى جملته. ومن ذلك الوقت صارت الحكومة المركزية هى المالكة لجميع الأراضى غير المزروعة التى تقع وراء حدود الثلاث عشرة ولاية

التى تكون منها الاتحاد فى البداية، فأصبح لها الحق فى تقسيم هذه الأراضى وفى بيعها - وكانت الأموال التى تجنى من هذا المصدر تودع فى الخزانة العامة لينفق منها على شراء الأراضى من الهنود ولشق الطرق المؤدية إلى المواضع النائية، وعلى استعجال تطوير المجتمع وتقدم الحضارة. هذا، وعلى مر الزمن تكونت ولايات جديدة وسط تلك المفاوز والمجاهل التى سبق أن سلمتها الولايات الواقعة على شواطىء المحيط الأطلسى، وظل الكونجرس يبيع الأراضى غير المنزرعة التى لهذه الولايات الجدد لمصلحة الأمة كلها.. ولكن هذه الولايات انتهى بها الأمر أن صارت تؤكد أنها، بعد أن أصبحت ذات كيان رسمى مقرر لها، صاحبة الحق فى أن تحول غلات هذه الأراضى المبيعة لمصلحتها هى وحدها. فلما اشتدت احتجاجاتها وصارت تهدد بما لايحمد عقباه، رأى الكونجرس من المصلحة أن يحرم الاتحاد من بعض الامتيازات التى ظل يستمتع بها إلى الآن، فأصدر فى آخر سنة ١٨٣٢ قانوناً قضى بتسليم الشطر الأعظم من الإيرادات الواردة من بيع الأراضى غير المنزرعة - إلى جمهوريات الغرب الجدد، وإن كانت الأراضى نفسها لاتسلم إليها.

وحسب المرء جولة سريعة فى الولايات المتحدة حتى يتبين المزايا التى تستمدها هذه البلاد من بنك الولايات المتحدة، وهى مزايا مختلفة الأنواع، ولكن واحدة منها تستثير الدهشة بوجه خاص فى نفس الغريب عن البلاد. فأوراق البنك المالية التى يصدرها البنك تعتبر قيمتها عند حدود البرارى بنفس القيمة التى لها فى فلادلفيا ذاتها، حيث يقوم البنك بشئون عملياته المصرفية.

ولكن بنك الولايات المتحدة هذا كان مع ذلك موضع عداوة مريرة. فقد أعلن مديروه عداوتهم لرئيس الجمهورية، ومن جهة أخرى اتهموا هم بأنهم أساءوا استخدام نفوذهم ليعارضوا انتخابه، وهو اتهام قد يكون فى محله. ومن أجل هذا هاجم الرئيس مؤسسة البنك هجوماً عنيفاً بكل ما فى العداوة الشخصية من مرارة، وقد شجعه فى الاستمرار فى انتقامه الشخصى اعتقاده أنه مؤيد بما تنطوى عليه الأغلبية من ميول خفية إليه. ويعد هذا البنك الرابطة المالية الكبرى التى تربط أجزاء الاتحاد بعضها ببعض، كما يعد الكونجرس الرابطة التشريعية الكبرى. هذا، وقد عاونت على هدم البنك تلك الشهوات والأهواء نفسها التى تهدف إلى جعل الولايات مستقلة عن السلطة المركزية.

كان بنك الولايات المتحدة يحتفظ دائماً بمقدار كبير من الأوراق المالية التى تصدرها بنوك الولايات المختلفة. وكان فى مقدوره أن يجبر هذه المصارف على أن تحول هذه الأوراق المالية إلى نقد فى أى وقت يشاء. أما هو فلم يكن يخشى على نفسه منها شيئاً من مثل هذا الطلب، لأن غزارة موارده تمكنه من مواجهة طلباتها ولكن حياة المصارف الإقليمية تصبح بذلك فى خطر، وتصبح عملياتها مقيدة محصورة، إذ أنها لاتستطيع أن تصدر من الأوراق المالية إلا مقداراً يتناسب مع رؤوس أموالها، ومع ذلك فقد أذعنت فى جزع لهذه الرقابة السليمة. وقامت الصحف التى اشترتها الولايات بالأموال، وقام الرئيس الذى جعلته

مصالحه أداة طيعة فى أيديها ، تهاجم البنك هجوماً عنيفاً ، واستثارت الشهوات المحلية ، ونزعة البلاد الديمقراطية الفطرية العمياء ، لتكون فى صفها تؤيد قضيتها ، ودأبت تؤكد أن مديرى البنك كونوا هيئة أرستقراطية دائمة سيصبح نفوذها فى النهاية ذا تأثير فى الحكومة ، وقد يؤثر فى مبادىء المساواة التى يقوم المجتمع على أساسها .

لم يكن النضال بين البنك وخصومه سوى حادث واحد فى ذلك الصراع الكبير الناشب فى أمريكا بين الولايات المختلفة وبين السلطة المركزية ، بين روح الاستقلال الديمقراطية وبين روح التوزيع السليم للسلطة وللسلطة التابعة . ولست أبغى أن أقول إن خصوم البنك هم الأفراد أنفسهم الذين هاجموا الحكومة الفدرالية فى نقاط أخرى ، وإنما أريد أن أقرر أن الهجمات التى تعرض لها بنك الولايات المتحدة نشأت فى ذات الميول التى تعارض قيام الحكومة الفدرالية وتناضل ضدها ، إن كثرة خصوم البنك كثرة كبيرة تعد أمارة مؤسفة على تناقص قوة الحكومة الفدرالية .

ولكن لم يحدث أن أظهر « الاتحاد » ضعفاً أشد مما أظهره أمام مشكلة التعريفة[١] الشهيرة ، فقد أدت حروب الثورة الفرنسية ، وحرب سنة ١٨١٢[٢] إلى إنشاء مؤسسات صناعية فى الجزء الشمالى من الاتحاد من جراء قطعها الاتصال الحر بين أمريكا وأوروبا . فلما تم عقد الصلح ، وعادت المواصلات إلى مجاريها المعتادة ، ووصلت المنتجات الأوروبية إلى بلاد الدنيا الجديدة ، رأى الأمريكيون أن مصلحتهم تقتضى أن ينشئوا نظاماً من المكوس يفرض على البضائع المستوردة ليحققوا به غرضاً مزدوجاً ، يحمون به مصانعهم الناشئة ، ويتمكنون من دفع ماعليهم من ديون كانوا قد اقترضوها فى أثناء الحرب . فالولايات الجنوبية التى ليس لديها مصانع تذكر ، من جراء أنها بلاد زراعية محض ، بادرت وجأرت بالشكوى من هذا الإجراء . لست أدعى أنى أبحث هنا عما إذا كانت شكواها هذه تقوم على أساس وطيد ، وإنما أنا أسرد الحقائق ليس إلا .

ففى سنة ١٨٢٠ أعلنت كارولينا الجنوبية فى شكوى لها رفعتها إلى الكونجرس أن التعريفة « غير دستورية .. وأنها ظالمة مجحفة » . ثم اعترضت عليها فيما بعد كلّ من ولايات جورجيا وفرجينيا وكارولينا الشمالية ، وألاباما ، والمسيسبى اعتراضات تختلف فى شدتها . ولكن الكونجرس . بدلاً من أن يصغى إلى هذه الشكاوى ، زاد معايير التعريفة الجمركية فى سنتى ١٨٢٤ و١٨٢٨ وأقر من جديد المبدأ الذى قامت على أساسه . وعندئذ أعلن فى الجنوب قانون باسم قانون الإبطال (Nullification)[٣] أو بالأحرى أنه أعيد إلى الحياة .

سبق أن أشرت فى الموضع المناسب أن الغرض من الدستور الفدرالى لم يكن تكوين

---

(١) ثار جدل عنيف أدى إلى تقرير الأخذ بمبدأ حماية التجارة قرره المجلس سنة ١٨٢٤ .

(٢) حرب قامت بين أمريكا وبريطانيا فى أثناء ماكانت الثانية فى صراعها مع نابليون وانتهت بصلح (غنت) فى ديسمبر سنة ١٨١٤ وانتهت دون أن يكون لها أية نتيجة دولية .

(٣) أى حق الولاية فى المناقشة فى أمر بطلان قرارات اتخذها الكونجرس .

حلف ، بل خلق حكومة قومية . فأمريكيو الولايات المتحدة يكونون شعباً واحداً لا يتجزأ فى جميع الأحوال التى حددها الدستور . وقد عبرت الأمة عن إرادتها فى جميع تلك النقط بصوت الأغلبية ، كما هى الحالة فى جميع الأمم الدستورية . فإذا ما قالت الأغلبية قولتها كان من واجب الأقلية أن تذعن لها . ذلك هو المبدأ القانونى السليم ، وهو المبدأ الوحيد الذى يتفق مع نص الدستور المعروف من نيات أولئكم الذين وضعوه .

هذا وعلى العكس من ذلك يعتقد أنصار « الإبطال » من أهل الجنوب أن نية الأمريكيين فى اتحادهم لم تكن أن يكونوا من أنفسهم شعباً واحداً قائماً بنفسه ، ولكنهم قصدوا تكوين حلف من شعوب مستقلة ليس إلا . وعلى ذلك فإن كل ولاية تحتفظ بسيادتها كاملة ، قانوناً (de jure) إن لم تستطع أن تحتفظ بها فى الواقع (de facto) ولها الحق فى أن تفسر قوانين الكونجرس التفسير الذى تراه ، وأن توقف عملها فى دائرة إقليمها الخاص إذا ما تبين لها أنها غير دستورية ، أو أنها مجحفة غير عادلة .

ويتلخص قانون « الإبطال » هذا كله ، فى جملة ذكرها السيد كلهون (Calhoun) نائب رئيس الجمهورية ، ورئيس ذلك الحزب فى الجنوب ، قالها أمام مجلس الشيوخ فى الولايات المتحدة سنة ١٨٣٣ . فقد قال « الدستور ميثاق ، الولايات أطراف فيه بوصفها أصحاب سيادة ، والآن كلما دخلت أطراف فى ميثاق لا تعترف فيه بأى حَكَم مشترك يكون رأيه الفيصل فى النهاية ، صار لكل منها الحق فى أن تحكم بنفسها ، فيما يتعلق بطبيعة الأداة ومداها والتزاماتها » . وظاهر أن مثل هذا المبدأ يقوض أساس الدستور الفدرالى ويعيد الأمريكيين إلى تلك الفوضى التى أنقذهم منها دستور سنة ١٧٨٩ .

فلما رأت كارولينا الجنوبية أن الكونجرس قد أصم أذنيه عن سماع احتجاجاتها هددت بتطبيق مبدأ « الإبطال » هذا على قانون التعريفة الفدرالى .. ولكن الكونجرس تشبث بنظامه ، فهبت العاصفة . ففى سنة ١٨٣٢ عقد شعب كارولينا الجنوبية مؤتمراً أهلياً لبحث الإجراءات غير العادية التى بقى عليهم أن يقوموا بها . ففى الرابع والعشرين من شهر نوفمبر السنة عينها أذاع هذا المؤتمر قانوناً على صورة مرسوم ألغى قانون التعريفة الفدرالى وأبطل عمله ، وحرم فرض الضرائب والمكوس التى قررها ذلك القانون ، ورفضت أن تعترف بالاستئناف الذى يمكن أن يرفع إلى المحاكم الفدرالية .. وهذا القانون لا ينفذ إلا فى شهر فبراير التالى . وقد أشير فيه إلى أنه إذا عدل الكونجرس التعريفة قبل هذه المدة فقد ترضى كارولينا الجنوبية بألا تتابع تهديداتها إلى أبعد من ذلك . ثم بدت رغبة غامضة فيما بعد إلى عرض المسألة على جمعية غير عادية تتألف من جميع ولايات الاتحاد ، وفى الوقت نفسه قامت كارولينا الجنوبية بتسليح حرسها الأهلى واستعدت للقتال .

ولكن هذا الكونجرس الذى استخف برعاياه الذين جاءوا يرفعون إليه مطالبهم أصغى إلى شكاواهم عندما كشروا عن أنيابهم ، وظهروا أمامه والسلاح فى أيديهم ، فعندئذ

صدر قانون تخفيض مكوس التعريفة تدريجياً لمدة عشر سنوات حتى تصل إلى درجة لا تزيد على ما يسد الاحتياجات الحكومية الضرورية ، وبذلك يكون الكونجرس قد نزل تماماً عن مبدأ التعريفة ، وأحل مجرد ضريبة مالية محل نظام الحرية الصناعية . وكى تصون حكومة الاتحاد ماء وجهها وتخفى ما أحاق بها من هزيمة التجأت إلى وسيلة معهودة للحكومات الضعاف ؛ فإنها سلمت بالموضوع من ناحية الواقع ، ولكنها ظلت مستمسكة به من حيث المبادىء . وبينما كانت تغير قانون التعريفة ، أجازت مشروع قانون يخول للرئيس سلطات غير عادية تمكن له من أن يتغلب بالقوة على مقاومة لم يعد أحد يخشى جانبها .

ولكن كارولينا الجنوبية لم ترض أن تدع الاتحاد ينعم حتى بمظاهر النجاح الهزيلة هذه . فالمؤتمر الأهلى الذى ألغى مشروع التعريفة انعقد هو نفسه مرة أخرى ، وقبل العرض المقدم إليه ، إلا أنه أعلن فى الوقت نفسه المثابرة فى الأخذ بمبدأ الإبطال مثابرة موصولة لا هوادة فيها . وكى يؤيد ما قال قرر إلغاء القانون الذى يقضى بمنح الرئيس سلطات استثنائية ، على الرغم من أنه كان من المؤكد ألا ينفذ هذا القانون .

حدثت معظم المناقشات التى تكلمت عنها تواً ، أو حدثت كلها فى مدة رياسة الجنرال جاكسون[1] . ولا نزاع فى أنه أيد حق الاتحاد فى مسألة التعريفة بهمة وبراعة ، ومع ذلك فيخيل إلى أن سلوك رئيس الحكومة الفدرالى هذا قد يعد خطراً من الأخطار التى تهدد الآن بقاء هذه الحكومة .

لقد ارتأى بعض الناس فى أوربا رأياً خاصاً بشأن ما للجنرال جاكسون من سلطان على شئون بلاده . وهو رأى يبدو مسرفاً بالغ الإسراف لمن خبروا الموضوع عن كثب . قيل إن الجنرال قد انتصر فى عدة معارك ، وإنه رجل نشط يميل بالطبع وبالعادة إلى استخدام القوة . فهو محب للسلطة ومستبد بسليقته . قد يكون هذا كله حقاً . ولكن النتائج التى رتبوها على هذه الحقائق جاءت خاطئة كل الخطأ . فقد توهموا أن الجنرال جاكسون عاقد العزم على إقامة دكتاتورية فى أمريكا ، وإدخال الروح الحربية فيها ، وإعطاء مزيد من النفوذ للسلطة المركزية لا يمكن أن يكون إلا مضراً بحريات الأقاليم ، ولكن وقت القيام بمثل هذه الأمور فى أمريكا وحصر الرجال الذين من هذا الطراز لم يحينا بعد .. فإن كان الجنرال جاكسون قد فكر فى استخدام سلطته على هذا النحو لكان قد خسر مركزه السياسى ، ما فى ذلك من شك ، ولوضع حياته فى مأزق حرج . إنه لم يبلغ به الخرق أن يحاول شيئاً من هذا القبيل .

لقد كان الرئيس جاكسون بعيداً كل البعد عن الرغبة فى توسيع السلطة الفدرالية ، فهو من الحزب الذى يعمل على الحد من هذه السلطة بشكل تتبع فيه حرفية الدستور

---

(١) الجنرال أندرو جاكسون الرئيس السابع للولايات المتحدة (١٨٢٩ - ١٨٣٧) وفى مدته زار المؤلف الولايات المتحدة .

الواضحة اليقينية .. والذى لا يسمح بتفسير مادة من مواد القانون الفدرالى تفسيراً تراعى فيه مصلحة حكومة الاتحاد . فما أبعده عن أن يقف موقف بطل المركزية ! إنه يمثل أحقاد الولايات وغيرتها بعضها من بعض ، فقد وضعته فى مركزه السامى تلك الأهواء التى تعارض الحكومة المركزية أشد المعارضة ، فاستطاع بتملقه هذه الأهواء فى كل يوم ، أن يحافظ على مركزه وشهرته بين الشعب . فالجنرال جاكسون صنيعة الأغلبية ، ولا غرو إن كان يستسلم لرغباتها ونزعاتها ويلبى كل مطالبها . وإن شئت ، قلت عنه ، إنه كان يسبق الزمان فى استجابته لنزعات الأغلبية هذه ورغباتها ، ويحققها لها قبل أن تعبر عنها هذه الأغلبية نفسها .

وكلما اصطدمت حكومات الولايات بحكومة الاتحاد كان الرئيس أول من يشك فى حقوقه عادة ، فهو يكاد يتخطى الهيئة التشريعية دائماً . وعندما يكون مدى السلطة الفدرالية موضوع الأخذ والرد ، وقف موقفاً ضد نفسه ، فهو يخفى مصالحه الرسمية ويعمل جاهداً للتقليل من شأن مقامه هو ويتستر وينكر نفسه كل الإنكار . وليس معنى ذلك أنه ضعيف بطبيعته أو معاد للاتحاد ، فعندما وقفت الأغلبية ضد المطالبين بالإبطال من أهالى الجنوب وضع نفسه على رأسها ، وأكد فى وضوح ونشاط المبادىء التى تستمسك بها الأمة ، وكان أول من أوصى باستعمال القوة . ولكن الجنرال جاكسون يبدو فى نظرى ، إذا سوغ لى أن أستعمل تعبيراً من تعبيرات الأحزاب الأمريكية ، فدرالياً بميوله ، وجمهورياً بعقله وتدبيره .

ويتظاهر الجنرال « بالتمسكن » والضعف كى يحظى باجتذاب الأغلبية إليه ؛ ولكن ما إن يشعر بأن شهرته بين الشعب مكفولة ، حتى يسارع ويزيل كل العقبات الملقاة فى السبل المؤدية إلى الأهداف التى ترتضيها الجماعة أو تلك التى لا تغار عليها ولا تتحمس لها . ولما كانت ثم قوة تؤيده لم يحظ بها رئيس قبله ، فقد جعل يدوس أعداءه الشخصيين إذا ما اعترضوا سبيله ، وإنه ليفعل ذلك بسهولة منقطعة النظير . فتراه يأخذ على نفسه تبعة الإجراءات التى لم يحدث أن رئيساً ممن سبقوه تجرأ وحاول أن يقوم بها .. فقد كان يعامل ممثلى الأمة أنفسهم بشىء من الازدراء ، يكاد يبلغ حد الإهانة . فكان يستخدم حق « الفيتو » ضد قوانين الكونجرس . وكثيراً ما كان يغفل حتى الإجابة على ما تطلبه منه هذه الهيئة القوية . إنه لصنيعة يتدلل على سيده ويعامله أحياناً بشىء من الغلظة ، والجفوة . فقوة الجنرال جاكسون تتزايد باستمرار ، أما قوة الرئيس جاكسون فتتضاءل . فالحكومة الفدرالية قوية فى يديه ، لكنها ستنتقل إلى يدى خليفته ضعيفة هزيلة .

إنى لأخطىء خطأ غريباً إن لم تفقد حكومة الولايات المتحدة الفدرالية قوتها على الدوام وتنسحب تدريجياً من الشئون العامة ، وتضيق نطاق عملها ونشاطها ؛ فهى ضعيفة بطبيعتها ولكنها تهجر الآن كل شىء .. حتى مجرد الظهور بمظهر القوة . ومن جهة أخرى يخيل إلى أنى لاحظت فى الولايات شعوراً قوياً بالاستقلال وتعلقاً لا شك فيه بحكوماتها

المختلفة . فالاتحاد مرغوب فيه . ولكن من حيث هو خيال ليس إلا . إنهم يريدون منه أن يكون قوياً فى بعض الحالات ، وضعيفاً فى سائرها . فيجب أن يكون فى وقت الحرب قادراً على تركيز كل قوى الأمة وجميع موارد البلاد فى يديه ، أما فى وقت السلم فلا أحد يكاد يحس بوجوده ، كأن هذا الضعف ، وهذا النشاط المتعاقبان أمران جائزان فى طبيعة الأشياء .

ولست أعرف إلى الآن شيئاً يستطيع أن يوقف نزعة الرأى العامة هذه . فالأسباب التى فيها نشأت ، لاتقف عن العمل فى هذا الاتجاه عينه ، ومن ثم ستظل هذه النزعة مستمرة . ولا بأس من أن نسبق الحوادث ونقول إن حكومة الاتحاد ستظل تضعف يوماً عن يوم إلا إذا استجد حادث خارق للعادة .

ومع ذلك ، ففى اعتقادى أن الوقت الذى فيه يؤدى عجز السلطة الفدرالية هذا عن حماية نفسها ، وعن صيانة السلام فى داخل البلاد - إلى القضاء عليها قضاء تاماً - هذا الوقت لايزال بعيداً . فالاتحاد مؤيد بعادات الشعب ورغباته ؛ ونتائجه ملموسة ؛ ومنافعه ظاهرة مرئية لاتخفى على أحد .. فإذا ما أدرك الناس أن ضعف الحكومة الفدرالية يجعل حياة الاتحاد فى خطر ، فلا شك عندى فى حدوث رد فعل يرمى إلى إعطائه مزيداً من القوة والسلطان .

إن حكومة الولايات المتحدة هى الوحيدة بين جميع الحكومات الفدرالية التى قامت إلى الآن ، الوحيدة .. التى قدر لها أن تعمل . فمادام تغيير قوانينها لايتم إلا بطرق غير مباشرة ، ومادام جوهرها سليماً لم يضعف ضعفاً خطيراً ، فإن تغيير الرأى أو حدوث أزمة داخلية ، أو قيام حرب ، قد يعيد إليها كل ما تقتضيه من نشاط[1] . فالذى حرصت كل الحرص على إبرازه إنما هو هذا . لقد خيل لكثير من الناس فى فرنسا أن تغييراً فى الرأى العام يجرى الآن فى الولايات المتحدة ، وأن هذا التغيير يتلاءم مع مركزية السلطة فى يدى الرئيس والكونجرس . أما أنا فأعتقد ، أننا نستطيع أن نرى فى وضوح وجود نزعة أخرى عكس هذه النزعة على خط مستقيم . فكلما تقدمت السن بالحكومة الفدرالية أصبحت بعيدة كل البعد عن اكتساب أية قوة جديدة ، وعاجزة كل العجز عن تهديد سيادة الولايات ، حتى صرت أعتقد أنها آخذة فى الضعف والتدهور ، وأن سيادة الاتحاد هى وحدها التى فى خطر . هذه هى الحقائق التى يسفر عنها الوقت الحاضر . أما المستقبل فيخفى نتيجة هذه النزعة الأخيرة ، والأحداث[2] التى يحتمل أن توقف تيار تلك التغييرات التى وصفتها تواً أو تعطله أو تزيد سرعته . هذا ولست أدعى أن فى استطاعتى إزاحة الستار الذى يخفى تلك الأحداث وتلك النزعة .

---

(١) حدث ما توقعه المؤلف . فقد قامت الحرب الأهلية فى الولايات المتحدة بين الشمال والجنوب (١٨٦١-١٨٦٥) وظلت قوة الحكومة الفدرالية تزداد باستمرار وتجلت كذلك بارزة فى الحربين العالميتين الأخيرتين .

(٢) كانت هذه الأحداث هى أحداث الحرب الأهلية التى قامت بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية (١٨٦١ - ١٨٦٥) .

المؤسسات الجمهورية فى الولايات المتحدة وما أمامها من فرص للبقاء

الاتحاد حادث عارض - والمؤسسات الجمهورية أبقى منه وأدوم - الجمهورية هى حتى الآن حالة الأمريكيين الإنجليز الطبيعية - القضاء عليها يقتضى تغيير القوانين كلها فى وقت واحد، وإحداث تغيير عظيم فى أخلاق الناس وعاداتهم كلها - العقبات التى تقوم فى سبيل الأمريكيين إن هم حاولوا إقامة أرستقراطية بينهم.

إن تفكك أواصر الاتحاد الذى ينجم عن قيام الحروب فى قلب الولايات «المتحالفة» الآن، وما يترتب على ذلك من إدخال نظم الجيوش القائمة، وإقامة ديكتاتورية غشوم، وفرض ضرائب باهظة، قد يؤدى فى النهاية إلى الإضرار بمصير المؤسسات الجمهورية. ولكن يجب ألا نخلط بين ما ينتظر الجمهورية فى المستقبل، وبين ما ينتظر الاتحاد. فالاتحاد أمر عارض لايدوم إلا ما بقيت الظروف والأحوال مواتية له، على حين أن الشكل الجمهورى يبدو لى أنه الحالة الطبيعية عند الأمريكيين. وليس يستطيع شىء أن يحولها إلى ملكية سوى أسباب معادية تعمل باستمرار فى اتجاه واحد بعينه. فالاتحاد موجود أساساً فى القانون الذى خلفه. فثورة واحدة، أو تغيير واحد فى الرأى العام، قد يكفى للقضاء عليه إلى الأبد، ولكن الجمهورية تقوم على أساس أوطد من ذلك وأعمق.

إن مايفهمونه فى الولايات المتحدة من الحكومة الجمهورية لايعدو تأثير المجتمع فى نفسه تأثيراً بطيئاً هادئاً. فالحكومة الجمهورية فى نظرهم حالة اجتماعية منتظمة تقوم أساساً على إرادة الشعب المستنيرة. فهى حكومة مسالمة، يترك فيها للقرارات وقت كاف لتختمر وتناقش، ولا تنفذ إلا بعد أن ينضج الرأى فيها تمام النضج.. هذا، ويعلى الجمهوريون فى الولايات المتحدة من قيمة الأمور الأخلاقية، ويحترمون المعتقدات الدينية، ويعترفون بالحقوق، ويرون أن الشعب يجب أن يكون أخلاقياً، متديناً، معتدلاً، عفيفاً، بقدر مايجب أن يكون حراً. وليس ما يسمونه «بالجمهورية» فى الولايات المتحدة، سوى حكم الأغلبية الهادىء الذى يعدونه المصدر العام الذى تستمد منه الدولة كل سلطانها. وهو لم يصبح كذلك إلا بعد أن استغرق الوقت الكافى فى فحص نفسه، وأثبت وجوده فعلاً. ولكن قوة الأغلبية هذه ليست بالقوة المطلقة غير المحدودة، ففوقها، من الناحية الأخلاقية، الإنسانية والعدالة والعقل؛ وفوقها، من الناحية السياسية، حقوق مقررة. هذا وتسلم الأغلبية بوجود هذين الحدين الحاجزين، فإن حدث وتحدتهما أحياناً، فما ذلك إلا أنها لها أهواؤها، شأنها شأن الأفراد؛ وهى معرضة مثلهم، لأن تقع فى الخطأ، وإن كانت تعرف ماهو صواب وحق.

ولكن الخطباء الشعبيين فى أوربا قد توصلوا إلى كشوف عجيبة! فليست الديمقراطية فى نظرهم حكم الأغلبية، كما ظل الناس يعتقدون إلى الآن، بل هى حكم أولئك

الذين يناصرون تلك الأغلبية ويؤيدونها بكل ما فى وسعهم من طاقة ومن جهد . فليس الشعب بصاحب الكلمة العليا فى مثل هذا الشكل من الحكومة ، ولكن أصحابها أولئك الذين يعرفون ماهو أصلح للشعب وأفيد له . وتلك تفرقة سعيدة تخول للناس أن يعملوا باسم الأمم ، من دون أن يستشيروها ، ويقفوا على رأيها ، كما تخول لهم أن يطالبوها بشكرهم على حين تكون حقوقها مديسة بالأقدام . وزيادة على ذلك فهم يعتقدون أن الحكومة الديمقراطية هى الحكومة الوحيدة التى لها الحق فى أن تعمل ما تشاء ، وتحتقر كل ما للناس من أسمى القوانين الأخلاقية وقواعد الذوق السليم المعهودة . فقد ظل الناس حتى عصرنا هذا يعتقدون أن الاستبداد أمر ممقوت فى كل صورة من صوره ، ولكن تم كشف جديد توصلوا إليه اسمه الطغيان المشروع والظلم المقدس ماداما يمارسان باسم الشعب .

إن الآراء التى ارتآها الأمريكيون بشأن الجمهورية تيسر لهم أن يعيشوا فى كنفها ، وتكفل لهم بقاءها . فعندهم أن الجمهورية ، على الرغم من أنها كثيراً ما تكون سيئة من الوجهة العملية ، صالحة من الوجهة النظرية على الأقل ، وسينتهى الشعب بأن يعمل وفقها دائماً فى كل ما يعمل .

كان من المستحيل ، عند تأسيس الولايات المتحدة ، إنشاء إدارة مركزية فى أمريكا ، ولا يزال ذلك اليوم أمراً بالغ الصعوبة . فالسكان مبعثرون فى بقاع واسعة مترامية الأطراف ، وتفصلهم بعضهم عن بعض عوائق طبيعية كثيرة يعجز معها أى فرد عن أن يضطلع بإدارة جزئيات شئونهم . فأمريكا تعد إذن بلاد حكومة الولايات ، والبلديات ، وقد شعر بهذا السبب جميع الأوربيين الذين يعيشون فى الدنيا الجديدة ؛ هذا ، وقد أضاف إليه الأمريكيون الإنجليز أسباباً أخرى خاصة بهم .

فلما نزل المستعمرون أمريكا الشمالية ، كانت الحرية فى الحكم المحلى قد تغلغلت فى القوانين الإنجليزية تغلغلها فى عاداتهم ، واعتنقها المهاجرون ، لامن حيث هى شىء ضرورى لاغنى عنه ، ولكن من حيث هى نعمة عرفوا كيف يقدرونها قدرها الصحيح . هذا ، وقد سبق أن رأينا كيف تأسست المستعمرات فى أمريكا . فكل مستعمرة ، بل وكل مركز تقريباً ، كان يسكنها قوم غرباء بعضهم عن بعض جمعت بينهم أغراض مختلفة كل الاختلاف .. فالإنجليز الذين استقروا فى الولايات المتحدة رأوا من وقت مبكر أنهم ينقسمون جماعات عديدة متمايزة ليس لهم مرجع واحد مشترك بينهم يرجعون إليه ، فكان على كل جماعة من تلك الجماعات الصغار أن تتولى السهر على شئونها بنفسها مادامت لاتوجد سلطة مركزية مضطرة بطبيعة الحال إلى رعاية هذه الجماعات وتزويدها بما يسد حاجاتها فى سهولة ويسر . فطبيعة البلاد ، والطريقة التى تأسست بها المستعمرات البريطانية ، وعادات المهاجرين الأول - وفى الجملة كل شىء - قد تضافرت بدرجة غير عادية على مناصرة الحريات فى الولاية وفى القرى ، والبلديات .

وهكذا نرى أن جملة المؤسسات التى فى الولايات المتحدة، مؤسسات جمهورية بالضرورة. فكى تهدم القوانين هدماً تاماً، والقوانين أساس كل جمهورية، يجب أن تلغى كلها دفعة واحدة، وأنه لأشق فى وقتنا الحاضر على أى حزب أو أية جماعة، أن تنشىء حكومة ملكية فى الولايات المتحدة، من أن تقوم فئة من الناس وتحول فرنسا إلى جمهورية. فالملكية لاتجد أمامها نظاماً عتيداً جاهزاً من التشريع أعد لها من قبل ليكون تحت تصرفها. فعندما تقوم الملكية تجد نفسها محوطة بمؤسسات ديمقراطية. وكذلك يجد المبدأ الملكى صعوبة كبيرة فى النفاذ إلى عادات الأمريكيين وعرفهم والتغلغل فيها.

ليست سيادة الشعب مبدأ منفصلاً قائماً بذاته فى الولايات المتحدة لاصلة له بعادات الشعب وأفكاره الغالبة عليه.. بل الأمر على العكس من ذلك حقاً. فهذا المبدأ يصح اعتباره آخر حلقة فى سلسلة من الآراء، تربط أجزاء عالم الأمريكيين الإنجليز.. ولقد وهبت العناية الإلهية كل إنسان قسطاً من الذكاء، لابد منه، ليوجه به نفسه فى الشئون التى تهمه هو خاصة. هذه هى القاعدة الكبرى التى تقوم على أساسها الجماعات السياسية والمدنية فى الولايات المتحدة؛ فترى رب الأسرة يلتزم هذه القاعدة مع أولاده، ويطبقها السيد على أتباعه وحشمه، وتطبقها القرية على مواطنيها جميعاً، والمقاطعة على قراها، والولاية على مقاطعتها، والاتحاد على الولايات كلها.. فإذا امتدت هذه القاعدة وشملت الأمة كلها صارت هى مذهب سيادة الشعب.

وهكذا نرى أن مبدأ الجمهورية الأساسى فى الولايات المتحدة هو نفسه المبدأ الذى يسيطر على الشطر الأعظم من أعمال بنى الإنسان. فالأفكار الجمهورية تتسرب إلى جميع أفكار الأمريكيين وعاداتهم، وتعترف بها القوانين اعترافاً رسمياً.. فقبل تغيير القوانين إذن، يجب أن يحدث انقلاب يشمل المجتمع كله... فحتى دين أغلب المواطنين فى أمريكا جمهورى، مادام يخضع الحقائق المتصلة بالآخرة لعقل الفرد، كما أن مصالح الشعب الدنيوية قد تركت، فى عالم السياسة، لفطرته السليمة. وهكذا صار لكل إنسان الحرية فى أن يختار الطريق الذى يعتقد أنه سيؤدى به إلى الجنة - كما أن القانون يخول لكل مواطن الحق فى أن يختار شكل الحكومة التى تحكمه.

وواضح أن لاشىء غير سلسلة متلاحقة من الأحداث، كل حادث منها يتجه نفس الاتجاه، يمكن أن تحل محل هذه المجموعة من القوانين والآراء والآداب، مجموعة أخرى مضادة لها من قوانين وآراء وآداب.

لو قدر للمبادىء الديمقراطية أن تزول من أمريكا، فإنها لن تستسلم إلا بعد عملية اجتماعية شاقة تتعطل كثيراً، ثم تعود وتستأنف عملها من جديد، وسيكون لها نهضات عدة ظاهرة، ولن تزول تماماً، إلا عندما يأتى شعب جديد كل الجدة ويحل محل الشعب الموجود الآن.. هذا وليس ثمة ى علائم أو نذر عن اقتراب مثل هذا الانقلاب.. ولاشىء

يدهش من ذلك التهيج الصاخب الذى يصادفه فى المجتمع السياسى . فالقوانين تتغير باستمرار .. ويبدو لأول وهلة أنه من المستحيل على أمة مترددة مثل هذا التردد بشأن ما تريد ، أن تتحاشى فى فترة قصيرة كل القصر اختيار شكل جديد كل الجدة من أشكال الحكم . ولكن أمثال هذه المخاوف سابقة لأوانها . فعدم الاستقرار الديمقراطى الذى يؤثر فى المؤسسات السياسية نوعان ، يجدر بنا ألا نخلط بينهما . فأول هذين النوعين يعدل القوانين الثانوية ، ولا يتنافى مع أية حال اجتماعية مستقرة كل الاستقرار . أما النوع الآخر فيهز الدستور ويزعزعه من أساسه ، ويهاجم مبادىء التشريع الأساسية ، وتعقبه دائماً متاعب وثورات . وتكون الأمة التى تعانى منه الكثير فى حالة عنيفة وعابرة لا تلبث أن تزول ، ويحل محلها غيرها .

لقد علمتنا الخبرة أن ليس بين هذين النوعين من عدم الاستقرار أى اتصال ضرورى ، لأنهما وجدا متحدين ، أو منفصلين بحسب الأوقات والأحوال . فالأول عام فى الولايات المتحدة ، وليس الثانى . فكثيراً ما يغير الأمريكيون قوانينهم ، أما أساس الدستور فلا يمسونه . فهو موضع احترام دائم منهم .

هذا وقد سيطر فى أيامنا هذه المبدأ الجمهورى على أمريكا ، كما كان يسيطر المبدأ الملكى على فرنسا أيام لويس الرابع عشر . فلم يكن الفرنسيون فى ذلك العصر أصدقاء الملكية فحسب ، بل كانوا يظنون أنه من المستحيل أن يحل شىء آخر محل هذا المبدأ الملكى . فقد استقبلوه كما نستقبل نحن أشعة الشمس ، وعودة الفصول المختلفة . فليس للسلطة الملكية عندهم أى خصوم يعارضونها ، ولا أنصار ، يدافعون عنها ؛ وكذلك الحال فى الحكومة الجمهورية فى أمريكا ، فلا نزاع فى أمرها ، ولا خصوم لها ، ولا حاجة بها إلى أدلة وحجج ، فقد تم ذلك كله باتفاق ضمنى صامت ، كأنه نوع من الإجماع المطلق .

ومع ذلك ، فمن رأيى ، أن سكان الولايات المتحدة ، بتغييرهم أشكال الإدارة عندهم بمثل تلك الكثرة التى درجوا عليها ، إنما يضرون باستقرار حكومتهم . هذا ، ويخشى على الناس الذين يصدمون باستمرار فى مقاصدهم ومشروعاتهم من جراء توالى التغيير فى التشريعات - يخشى عليهم أن يعتادوا النظر إلى الجمهورية على أنها نظام متعب من نظم الحكم . فقد يشكك الشر الناجم من عدم استقرار القرارات والقوانين الثانوية ، الناس فى طبيعة مبادىء الدستور الأساسية ، فيؤدى بطريقة غير مباشرة إلى حدوث ثورة أو انقلاب ، ولكن هذا اليوم لا يزال بعيداً كل البعد .

ومن الميسور أن نتكهن ، من الآن ، بأن الأمريكيين إذا ما أضاعوا مؤسساتهم الجمهورية وصلوا سريعاً إلى حكومة استبدادية ، من غير أن يمروا بفترة طويلة من الملكية المحددة . فقد لاحظ منتسكيو : ليس ثمة شىء أكثر إطلاقاً من سلطة أمير يتولى العرش

عقب جمهورية مباشرة. لأن السلطات غير المحدودة التى كانت قد وضعت بكل جرأة فى أيدى حاكم منتخب، تنقل إلى أيدى ملك وراثى. وهذا حق فى جملته. ولكنه يصدق بوجه خاص على جمهورية ديمقراطية. فالحكام فى الولايات المتحدة لاتنتخبهم طبقة خاصة من المواطنين، بل تنتخبهم غالبية الأمة. ولما كانوا الممثلين المباشرين لأهواء الجمهور. ويعتمدون كل الاعتماد على مشيئته وعلى هواه. فهم لايستثيرون كراهية ولا خوفاً. ومن ثم، كما أشرت من قبل. لم تتخذ سوى احتياطات قليلة للحد من سلطانهم. بل ترك لهم قسط كبير من السلطة التحكمية. فترتب على هذا الوضع عادات راسخة لاتزول. فالحاكم الأمريكى سيحتفظ بسلطته غير المحدودة. ولكنه لايكون عندئذ مسئولاً عنها. ومن المستحيل على أحد قبول أى قيود أو حدود يمكن أن تفرض عندئذ على استبداده وطغيانه.

وينتظر بعض الساسة الأوربيين أن يروا الأرستقراطية تقوم فى أمريكا. وقد تنبأوا فعلاً بالوقت الذى تتولى فيه أزمة الحكم. وعينوه على وجه التحديد. هذا. وسبق أن أشرت إلى ما أعود وأكرره الآن. من أن نزعة المجتمع الأمريكى الحالية تبدو أنها تزداد كل يوم ديمقراطية عن اليوم الذى قبله. ومع ذلك فلست أؤكد أن الأمريكيين لن يُضيِّقوا فى وقت ما فى المستقبل دائرة الحقوق السياسية. أو يصادروا هذه الحقوق على طبقة خاصة من المواطنين، أو بعبارة أخرى لاأعتقد أبداً أنهم سينشئون طبقة أرستقراطية فى يوم ما.

تتكون كل هيئة أرستقراطية من عدد معين من المواطنين لايعلون عن جملة الشعب علواً كبيراً. ومع ذلك يتبوءون مركزاً دائماً فوق مستوى الشعب. فهى هيئة من الناس يسهل الاتصال بها ويتعذر الاعتداء عليها. فالشعب متصل بها فى كل يوم. ولكنه. مع ذلك، لايستطيع أن يندمج فيها أبداً. وليس ثمة شىء يتنافى مع الطبيعة البشرية. ومع الغرائز الخفية فى النفس البشرية. تنافياً أكثر من مثل هذا النوع من الخضوع. فمن يتركون وشأنهم يعملون بحسب ماتوحيه إليهم نفوسهم. ويؤثرون دائماً أن يحكمهم ملك غشوم متحكم. من أن تدير شئونهم أرستقراطية. بانتظام. فالمؤسسات الأرستقراطية لاتستطيع أن تعيش من غير أن تجعل تفاوت الناس مبدأ أساسياً لها فتجعله من البداية أمراً مشروعاً. ثم تعمل به فى الأسرة كما تعمل به فى المجتمع. ولكن هذه كلها أمور تناقض المساواة الطبيعية كل التناقض. لدرجة أنها لايمكن أن تنتزع من الناس إلا بالقوة والعنف.

لاأظن أحداً يستطيع أن يذكر لنا شعباً واحداً منذ وجدت المجتمعات الإنسانية إلى الآن، قد أقام باختياره الحر. وبجهوده نفسه أرستقراطية فى عقر داره. فجميع الأرستقراطيات التى ظهرت فى العصر الوسيط لم تقم إلا بالفتوح الحربية. فالفاتح هو النبيل. ويصبح المقهورون أقناء عبيداً للأرض، وعندئذ يفرض التفاوت -وعدم المساواة-

على الناس بالقوة ، وما إن دخل مرة فى عادات البلاد وآدابها ، حتى استقر وبقى ، وصار بطبيعة الحال جزءاً من القوانين . هذا ، وقد وجدت جماعات كانت أرستقراطية منذ بداية نشأتها ، بسبب ظروف وأحوال سابقة على وجودها هذا ، ثم صارت تزداد ديمقراطية عصراً بعد عصر . وهذا ما حدث للرومان ، وللبرابرة من بعدهم . فلو أن شعباً نشأ فى الحضارة والديمقراطية ، ثم يقيم التفاوت بين الناس تدريجياً حتى يصل به الأمر إلى إقامة امتيازات خاصة ، مصونة لا يتعدى على أصحابها أحد ، وطبقات اجتماعية مغلقة ، لا يدخلها غير أعضائها - ، لكان ذلك بدعة جديدة فى العالم حقاً . وليس ثمة ما يدل على أن أمريكا ستكون أول أمة تقدم لنا مثالاً على ذلك .

بضع ملاحظات على الأسباب التى أدت إلى ازدهار التجارة فى الولايات المتحدة

هيأت الطبيعة الولايات المتحدة لأن تكون أمة بحرية عظيمة - مدى سواحلها - عمق مرافئها - طول أنهارها - ومع ذلك فتفوق الأمريكيين فى التجارة يرجع إلى أسباب أخلاقية وفكرية أكثر مما يرجع إلى ظروف بلادهم الطبيعية - السبب فى هذا الرأى - مستقبل الأمريكيين الإنجليز من حيث هم أمة تجارية - انحلال الاتحاد لا يؤدى إلى تعطيل نشاطه التجارى - سبب ذلك - سيقوم الأمريكيون بطبيعة الحال بسد احتياجات أمريكا الجنوبية - وسيصبحون كالإنجليز وكلاء تجاريين لجزء كبير من العالم .

تمتد سواحل الولايات المتحدة من خليج «فندای» إلى نهر «ساباين» الذى يصب فى خليج المكسيك ؛ ويبلغ طولها أكثر من ألفى ميل ، متصلة كلها بعضها ببعض ، وخاضعة لحكومة واحدة . فليس فى العالم أمة تملك موانىء أوسع وأعمق وأكثر أمناً للتجارة مما يملكه الأمريكيون .

فسكان الولايات المتحدة شعب متحضر عظيم ألقت به يد الأقدار وسط بلاد غير منزرعة ، تبعد ثلاثة آلاف ميل عن مركز الحضارة ، فلا غرو إن كانت أمريكا بحاجة مستمرة إلى أوربا . هذا ، وليس من شك فى أن الأمريكيين سيضطرون آخر الأمر إلى أن ينتجوا ، أو يصنعوا فى بلادهم القسط الأكبر مما يحتاجون إليه من السلع ، ومع ذلك فهاتان القارتان لا يمكن أن تستغنى إحداهما عن الأخرى ، فالروابط الطبيعية التى تربط احتياجاتهما ، وأفكارهما ، وعاداتهما بعضها ببعض كثيرة .

فللاتحاد سلع خاصة به أصبحت الآن ضرورية للأوربيين لأنها لا يمكن أن تزرع فى أراضيهم ، أو بعبارة أخرى لا تزرع إلا بنفقات باهظة .. والأمريكيون لا يستهلكون من هذه المحصولات سوى جزء صغير ، ومن ثم فهم على استعداد لأن يبيعوا للأوربيين الفائض عن حاجتهم منها . فأوربا سوق أمريكا إذن ، كما أن أمريكا سوق أوربا . فالتجارة الخارجية ضرورية لتمكين سكان الولايات المتحدة من نقل مواردهم إلى الموانىء الأوربية ، كما أنها

ضرورية لتمكين أوربا من إمداد أمريكا بالسلع المصنوعة . فعلى الولايات المتحدة إذن ، إما أن تقدم للأمم البحرية الأخرى أعمالاً كثيرة ، حتى ولو هجرت هى الاشتغال بالتجارة ، كما فعل الأسبانيون فى المكسيك إلى الآن ، وإما أن تعمل على أن تصبح دولة من أكبر الدول البحرية فى العالم .

لقد أظهر الأمريكيون الإنجليز دائماً ميلاً شديداً إلى العمل فى البحار . فقد حطم إعلان الاستقلال القيود التجارية التى ربطت الأمريكيين ببلاد الإنجليز ، وكان ذلك حافزاً قوياً جديداً حرك ميولهم البحرية وأبرزها . فازدادت منذ ذلك الوقت حمولات سفن الولايات المتحدة زيادة سريعة تشبه زيادة سرعتها فى عدد السكان . ويقوم الأمريكيون أنفسهم بنقل تسعة أعشار ما يستهلكون من المنتجات الأوربية التى يستوردونها ، وينقلون على سفنهم ثلاثة أرباع ما يصدرونه إلى موانىء أوربا للمستهلك الأوربى . فسفن الولايات المتحدة تملأ موانىء الهافر ولفربول على حين أن عدد السفن الإنجليزية والفرنسية قليل نسبياً .

وهكذا صار التاجر الأمريكى لاينافس التجار فى بلاده فحسب ، بل صار ينافس تجار الأمم الأوربية فى موانئهم . ويرجع ذلك إلى أن سفن الولايات المتحدة تمخر البحار بنفقات أقل . فمادامت سفن أمريكا التجارية تحافظ على هذه الميزة ، فإنها سوف تحتفظ بما اكتسبته ، وتظل تزداد ازدهاراً باستمرار .

ليس من السهل تحديد السبب الذى يجعل الأمريكيين يسيرون سفنهم بنفقات أقل مما تسير الأمم الأخرى سفنها بها . وقد يميل المرء إلى أن يعزو ذلك لأول وهلة إلى ما منحته الطبيعة البلاد من مزايا ، ولكن الأمر ليس كذلك ؛ فصنع سفينة أمريكية يتكلف من النفقات ما تتكلفه السفينة الفرنسية ، ذلك إلى أن صنعها ليس خيراً من سفن فرنسا ، ولا هى تعمر أطول منها ، وأجر الملاح الأمريكى أعلى من أجر زميله الأوربى ؛ ويؤيد ذلك عدد الأوربيين الذين يعملون فى سفن الولايات المتحدة التجارية . فكيف حدث إذن أن استطاع الأمريكيون أن يسيروا سفنهم بأسعار أقل مما يستطيع الأوربيون تسيير سفنهم ؟ يبدو لى أن السبب الحقيقى فى تفوقهم ليس ما لهم من مزايا جغرافية ، ولكن الأمر يرجع إلى ميزات أخلاقية وفكرية .

والموازنة الآتية توضح ما أرمى إليه . ففى أثناء المعارك التى قامت فى أثناء الثورة الفرنسية أدخل الفرنسيون نظاماً جديداً فى « التكتيك » الحربى حير أساطين القواد ، وكاد يقضى على أقدم الدول الملكية فى أوربا . فقد حاول الفرنسيون أن يحاربوا على الرغم مما كان ينقصهم من كثير من الأشياء التى كان المعتقد أنها لا يمكن الاستغناء عنها فى الحروب ، وكان لابد لهم من جهود جديدة تقوم بها جيوشهم ، لم تخطر على بال أمة من الأمم المتحضرة من قبل ، فأنجزوا أعمالاً جساماً فى وقت يكاد لايصدق ، لقصره ؛ وخاطروا بالأرواح فى غير تردد ليحققوا الأهداف التى رموا إليها . وكان ما لدى الفرنسيين من المال والرجال أقل مما لدى أعدائهم ، وكانت مواردهم دون موارد أعدائهم بكثير . وعلى الرغم

من ذلك كان النصر معقوداً بألويتهم باستمرار ، ولم يفارقها إلا بعد أن عمد خصومهم إلى محاكاتهم واقتباس طرقهم .

ولقد أدخل الأمريكيون نظاماً مثل هذا النظام فى تجارتهم ؛ فعملوا فى سبيل رخص الأسعار ما عمله الفرنسيون فى الفتوح والانتصار على أعدائهم . فالملاح الأوربى يسير سفنه فى حزم وكياسة ، فلا تراه يقلع إلا إذا كان الجو صالحاً للإقلاع[1] . وإذا ما صادفه حادث غير منظور أرسى بسفينته فى الميناء ؛ وإذا جن الليل عمد إلى جزء من أشرعته يطويها ، وإذا ما رأى الزبد الأبيض أخذ يطفو على أثباج الأمواج فى المحيط ، مما يبشر بقرب الشاطىء ، خفف من سيره ، وجعل يرصد الشمس . أما الملاح الأمريكى فيغفل كل هذه الاحتياطات ، ويقتحم هذه الأخطار فى غير مبالاة ؛ فيرفع مرساته ، ويقلع بسفينته قبل أن تهدأ هائجة العاصفة ، وينشر قلوعه تستقبل الريح بالليل وبالنهار ؛ وإذا ما أصيبت سفينته بشىء من العطب من جراء العاصفة ، قام بإصلاحه ، فى أثناء مسيره ؛ وإذا ما اقترب من نهاية المطاف اندفع نحو الشاطىء ، كأنه قد لمح الميناء فعلاً . وكثيراً ما تتعرض سفن الأمريكيين للعطب والتحطم ، ولكن ليس ثمة تاجر يعبر البحار بالسرعة التى يعبرها بها الأمريكيون . ولما كانوا يقطعون المسافة التى كان يقطعها الملاحون الأوربيون ، فى وقت أقصر ، فهم يتمونها بنفقات أقل .

ومن عادة الملاح الأوربى أن يمر بعدة موانىء مختلفة فى أثناء رحلته الطويلة ، ويضيع كثيراً من الوقت الثمين فى دخول الميناء وفى انتظار هبوب الريح المواتية ، قبل أن يخرج من المرفأ . ذلك إلى أنه يدفع كل يوم رسوماً نظير بقائه فى الميناء . أما الملاح الأمريكى فيبدأ من « بوسطن » ليشترى شاياً من الصين فيصل إلى ميناء كانتون ثم يقفل راجعاً . ففى أقل من سنتين يقطع ما يعادل محيط الكرة الأرضية ، ولا يكون قد رأى الأرض غير مرة واحدة . صحيح أنه قد لا يتناول غير الماء الأجاج طوال الثمانية أو العشرة الشهور التى قد يظل طول سفرته يصارع البحر والمرض والتعب ، ولكنه بعد أوبته من رحلته الطويلة يستطيع أن يبيع رطل الشاى بأقل مما يبيعه به التاجر الإنجليزى بنصف بنس ، وبذلك يكون قد حقق موارده .

لا أستطيع التعبير عما أقصده بأفضل من أن أقول إن الأمريكيين يبدون نوعاً من البطولة فى طريقهم التى ينهجونها فى التجارة ؛ أما التاجر الأوربى فيشق عليه دائماً أن يحاكى منافسه الأمريكى الذى صار ، بالنظام الذى أسلفت شرحه ، لا يجرى على خطط مدروسة من قبل ، بل يعمل مدفوعاً بحوافز من سليقته .

يدرك سكان الولايات المتحدة جميع الاحتياطات والرغبات التى تترتب على استبحار الحضارة وتقدم العمران ، وإذ كانوا غير محوطين ، كما هى الحال فى أوربا ، بشعوب نظمت شئونها بمهارة على نحو يسد هذه الحاجات وتلك الرغبات ، فقد وجدوا أنفسهم مضطرين

---

(١) لا يخفى أن السفن الشراعية كانت لا تزال هى وسائل النقل البحرى . فأول سفينة بخارية اجتازت المحيط الأطلسى من أوربا إلى أمريكا قامت من أوربا فى ٢٢ أبريل سنة ١٨٣٨ .

فى كثير من الأحيان إلى أن يحصلوا بأنفسهم على مختلف الأشياء التى جعلها التعليم والعادة أموراً ضرورية لاغنى عنها . فكثيراً ما يحدث فى أمريكا أن يكون الشخص الواحد هو الذى يحرث الأرض بنفسه ، ويبنى مسكنه ، ويهيىء عدده وآلاته ، ويصنع حذاءه ويغزل الخيوط البسيطة التى ينسج بها كساءه . وليس من شك فى أن هذا كله مضر بتجويد الصنعة وإحكامها ولكنه يعاون كل العون على إيقاظ ذكاء العامل . فليس ثمة شيء يجعل المرء مادياً ويجرد شغله من أدنى أثر للعقل والتفكير ، مثل الإسراف فى تقسيم العمل . ففى بلاد أمريكا ، حيث الأخصائيون نادرون ، لايتطلب الأمر ممن يريد الاشتغال بحرفة ما أن يمضى وقتاً طويلاً فى التدرب عليها . فلاغرو أن كان الأمريكيون يغيرون بكل سهولة الوسائل التى يكسبون بها رزقهم . ويكيفون مهنهم بحسب ما تقتضيه أحوالهم . ولايشق عليك أن تصادف أشخاصاً اشتغلوا على التوالى محامين وزراعاً ، وتجاراً وقسساً وأطباء . فإن كان الأمريكى لايبلغ فى أية حرفة يمتهنها درجة الكمال التى يبلغها الأوربى فإنه قد زاول على الأقل الكثير من الحرف حتى لاتكاد تكون ثمة حرفة يجهلها كل الجهل . إن مقدرته أعم وأشمل من مقدرة الأوربى . وأفق تفكيره أوسع .

الأمريكيون لايتقيدون أبداً بقواعد المهنة المقررة ، فهم يعملون على تفادى كل تحزب يتعلق بمركزهم الحالى ، ولا يتعلقون بطريقة معينة من طريق العمل أكثر من تعلقهم بغيرها ، ولا هم يميلون إلى إيثار طريقة عتيقة على أخرى جديدة . فليس فيهم عادات راسخة متأصلة ، وليس أسهل عليهم من أن ينفضوا عن أنفسهم الأثر الذى قد تتركه فيهم عادات الدول الأخرى ، اعتقاداً منهم بأن بلادهم تختلف عن سائر بلاد العالم ، وأن موقعها لامثيل له فيه . فأمريكا بلاد العجائب حقاً . فكل شيء فيها فى حركة دائمة لاتنقطع ، وكل تغيير يعد فى نظرهم تحسيناً . ففكرة التجديد متصلة عندهم بفكرة التحسين اتصالاً وثيقاً لاينفصم . فظاهر أنهم لم يفرضوا أى حد من حدود الطبيعة على جهود الإنسان ونشاطه ، فالأمريكى يرى أن الأمور التى لم تعمل ليست سوى تلك التى لم يحاول أحد أن يعملها بعد .

إن التغيير الدائم الحادث فى الولايات المتحدة ، وتغير حظوظ الناس وكثرة ما يجرى من تقلبات فى ثروة البلاد العامة ، وثروة الفرد الخاصة - كلها تجعل عقول الشعب فى استثارة موصولة لاتنقطع أشبه بحمى المحموم ، مما يشجعهم على المزيد من بذل الجهود ، ويجعلهم فوق مستوى البشر العادى ، إن صح لنا هذا التعبير . فحياة الأمريكى تمر كلها وكأنها لعبة من ألعاب الحظ والمصادفة أو أزمة ثورية ، أو معركة من المعارك . ولما كانت الأسباب الفعالة باستمرار فى طول البلاد وعرضها واحدة لاتتغير ، فقد صارت فى النهاية حافزاً قوياً كل القوة يدفع الخلق القومى إلى المزيد من التماسك والثبات . فكل أمريكى ، لابد أن يكون إذن شخصاً ذا رغبات وميول قوية ، مغامراً محباً للمخاطرات ، وقبل كل شيء ، مغرماً كل الغرام بكل جديد . وتتجلى هذه النزعات نفسها فى كل ما يزاوله ، فهو يدخلها فى قوانينه السياسية ، وفى معتقداته الدينية ، ونظرياته فى الاقتصاد الاجتماعى ، بل وفى هواياته وأشغاله المنزلية ، وينقلها معه إلى أعماق الغابات كما يتبعها كذلك فى إدارته

الأعمال فى المدينة . فهذا الغرام نفسه ، إذا ما طبق على التجارة الخارجية ، جعل التاجر الأمريكى أرخص تجار الدنيا كلها وأسرعهم فى تلبية الطلبات .

ومادام ملاحو الولايات المتحدة يحتفظون بهذه المزايا العقلية وبتفوقهم العملى الذى يستمدونه منها ، فإنهم لا يستمرون فى سد حاجات المنتجين والمستهلكين فى بلادهم فحسب ، بل سيتجهون إلى أن يكونوا الوكلاء التجاريين للأمم الأخرى ، مثلهم فى ذلك مثل الإنجليز . وقد أخذت هذه النبوءة تتحقق فعلاً ، فنرى التجار الأمريكيين يعملون وسطاء فى تجارة كثير من الأمم الأوربية وستكون أمريكا نفسها مجالاً أوسع من أوربا لنشاطهم .

أصبحت المستعمرات الكبرى التى أنشأها الإسبانيون والبرتغاليون فى أمريكا الجنوبية إمبراطورية واسعة[1] . ولكن الظلم المتتالى والحروب الأهلية تعمل الآن على تدمير هذه الأقاليم المترامية الأطراف . فعدد السكان لا يزداد ، وسكانها القليلون المبعثرون فى كل مكان منهمكون كل الانهماك فى شئون الدفاع عن النفس ، حتى بلغ بهم الأمر أنهم لم يعودوا يحاولون تحسين أحوالهم . ولكن الأمر لن يظل كذلك على الدوام . لقد نجحت أوربا بجهودها ، فى اختراق ظلمات العصور الوسطى . ففى أمريكا الجنوبية نفس القوانين والعادات التى للأوربيين ، وفيها بذور الحضارة التى برزت ونمت بين دول أوربا ، أو ما تفرع منها ، وذلك فضلاً عن المزايا والفوائد المستمدة من حضارة الأوربيين ؛ فما الذى يجبرها على أن تظل غير متحضرة إذن ؟ لا يخفى أن المسألة مسألة وقت ليس إلا ، ففى المستقبل ، وقد يكون هذا المستقبل قريباً أو بعيداً ، سيكون سكان أمريكا الجنوبية أمماً مزدهرة ومستنيرة .

ولكن عندما يشعر الإسبانيون والبرتغاليون الذين فى أمريكا الجنوبية بالاحتياجات العامة التى تتطلبها جميع الأمم المتحضرة ، سيظلون ، مع ذلك ، عاجزين عن سد هذه المطالب بأنفسهم . وإذ كانوا أصغر أبناء الحضارة سناً ، كان عليهم ، بالضرورة ، أن يسلموا بتفوق إخوتهم الأكبر منهم . إنهم سيظلون زراعيين أمداً غير قصير ، قبل أن ينجحوا فى تصنيع بلادهم ، أو فى التجارة - وسيحتاجون إلى الوسطاء ليقايضوا لهم بمنتجاتهم - المنتجات التى تمس إليها الحاجة من وراء البحار .

ليس من شك فى أن الأمريكيين الشماليين سيدعون فى يوم قريب لأن يزودوا أمريكيى الجنوب بما يحتاجون إليه من السلع . فقد جعلتهم الطبيعة متجاورين فى الديار ، وزودت الأولين بكل وسيلة ممكنة لمعرفة هذه الاحتياجات وتقديرها ، ولإقامة علاقات دائمة بتلك الدول ، ولملء أسواقها بالسلع تدريجياً . هذا ، ولا يخشى تاجر الولايات المتحدة

---

(١) تحررت البرازيل من الاستعمار البرتغالى سنة ١٨١٤ وأصبحت مملكة فى ١٣ مايو سنة ١٨٢٢ واختير دون بدور حامياً للبرازيل مدى حياته وأعلن إمبراطوراً عليها فى ١٢ أكتوبر سنة ١٨٢٢ - هذا وقد عزل ابنه وهو يحمل اسم أبيه نفسه سنة ١٨٨٩ ، وهكذا وبعد ٦٧ سنة من الحكم الإمبراطورى صارت دولة البرازيل جمهورية اتحادية باسم ولايات البرازيل المتحدة .

من أن يخسر هذه المزايا الطبيعية . فإن كان دون التاجر الأوربى بكثير ، فهو يفوقه من نواح عدة . فقد صار لأمريكيى الولايات المتحدة نفوذ أدبى عظيم فى كل شعوب الدنيا الجديدة . فهم مصدر وحيها وتفكيرها .

وقد ألف سكان هذه القارة أن يعدوا الأمريكيين أكثر أعضاء الأسرة الأمريكية استنارة وقوة وثراء . فكل الأبصار تتجه إذن إلى الولايات المتحدة ، إذ هى المثل الذى تحاول الجماعات الأخرى أن تحاكيه ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً . فهى تقتبس مبادئها السياسية وقوانينها من الاتحاد الأمريكى .

هذا ، ويقف أمريكيو الولايات المتحدة إزاء سكان أمريكا الجنوبية نفس الموقف الذى وقفه أجدادهم الإنجليز من قبل إزاء الإيطاليين والإسبانيين والبرتغاليين وسائر دول أوربا التى تحصل على أدوات استهلاكها اليومى من إنجلترا ، بسبب تخلف هذه الدول عن الإنجليز حضارياً وتجارياً ، فإنجلترا تعد الآن المستودع الطبيعى لجميع الدول التى يسهل الاتصال بها أو معظمها على الأقل . وسيقوم الاتحاد الأمريكى بالدور نفسه هذا فى النصف الآخر من الكرة الأرضية . فكل دولة تأسست فى الدنيا الجديدة ، أو ازدهرت فيها ، إنما تأسست وازدهرت لما فيه مصلحة الأمريكيين الإنجليز هؤلاء .

فلو حدث أن انحل الاتحاد لتعطلت إلى حين تجارة الولايات التى يتكون منها الآن ، ما فى ذلك شك ، ولكنه سيكون تعطلاً أقل مما يظنه الناس . ولا يخفى أن الولايات المتحدة ستظل متحدة بعضها مع بعض ، مهما حدث من أمور ؛ فهى متجاورة وتتمتع بوحدة فى مصالحها ، وفى آرائها ، وكذلك فى أخلاقها وآداب السلوك عندها ، فهذه الولايات وحدها قوة بحرية كبرى . وحتى إن فرضنا أن الجنوب استقل عن الشمال فإنه سيظل مفتقراً إلى خدمات الولايات الشمالية . وقد سبق أن أشرت إلى أن أقاليم الجنوب لا تعد بلاداً تجارية ، وليس لدينا اليوم شىء يدل على أنها ستكون كذلك يوماً ما . فسيظل الأمريكيون الذين يقطنون جنوب الولايات المتحدة مضطرين زمناً طويلاً إلى أن يلجأوا إلى الأجانب ليصدروا لهم غلاتهم ومنتجاتهم ، وليزودوهم بالسلع اللازمة لسد احتياجاتهم . ولكن لا شك فى مقدرة الولايات الشمالية على أن تقوم للجنوبيين بأعمال الوسيط بأجور أرخص مما يمكن أن يقوم لها بها سائر التجار . وعلى ذلك فالجنوبيون سيظلون يحتفظون بخدمات الشماليين التجارية هذه ، لأن رخص الأسعار هو القانون الأساسى فى الاتجار . وليس فى مقدور الإدارة السيادية العليا ، والنعرات القومية أن تظل تقاوم رخص الأسعار هذا زمناً طويلاً . ولا شىء أقسى من الكراهية التى بين أمريكيى الولايات المتحدة والإنجليز ، ولكن على الرغم من هذا الشعور العدائى فالأمريكيون يستمدون أكثر مما عندهم من السلع المصنوعة من إنجلترا ، لأنها توردها لهم بأسعار أقل من أية دولة أخرى . وعلى هذا فازدهار أمريكا المتزايد يصبح ، على الرغم من حقد الأمريكيين ، من مصلحة الصناعات الإنجليزية .

يدلنا العقل ، وتؤيده الخبرة أن الازدهار التجارى لايدوم طويلاً إذا لم تسنده وقت الحاجة قوة بحرية . فهذه حقيقة تعرفها الولايات المتحدة جق المعرفة كما تعرفها كل دولة أخرى . لقد استطاع الأمريكيون أن يجعلوا عَلَمَهم (رايتهم) محترماً ، ولن تمضى سنوات قلائل حتى يصبح مرهوب الجانب . وإنى لواثق من أن حل الاتحاد لن يؤدى إلى إضعاف قوة الأمريكيين البحرية . بل إنه ليعاون كل العون على زيادتها وتقويتها . فالولايات التجارية مرتبطة فى الوقت الحاضر بولايات أخرى ليست تجارية تنظر متحسرة إلى تزايد قوة بحرية لايتيسر لها أن تفيد منها إلا بطريقة غير مباشرة . وعلى النقيض من ذلك ، إن توحدت الولايات التجارية ، وجعلت من نفسها أمة واحدة ، تبوأت التجارة مركز الصدارة فى مصالحها القومية ، وعندئذ تكون مستعدة للقيام بتضحيات كبيرة لحماية سفنها التجارية ، وليس ثمَّ شىء يحول دون استمرارها فى رغباتها فى هذه المنطقة .

الأمم كالأفراد ، يكاد الواحد منهم ، يكشف دائماً منذ صغره ، عن الملامح الرئيسية لمستقبله المقدر له . فكلما فكرت فى المهمة التى يبديها الأمريكيون فى التجارة ، والميزات التى تعاونهم ، والنجاح الذى يصاحب مايقومون به من مشروعات تجارية ، لايسعنى إلا أن أعتقد أنهم سيكونون فى يوم ما أعظم دولة بحرية فى العالم ، فقد ولدوا ليسيطروا على البحار ، كما سيطر الرومان على البر من قبل .

ختـــام

هأنذا قاربت الفراغ من بحثى . فقد حاولت ، طيلة الكلام على مستقبل الولايات المتحدة ومصائرها ، أن أقسم الموضوع أقساماً متمايزة ، كى يتيسر لى توفية كل قسم حقه من الدرس . أما الآن فأود أن أنظم كل ما سبق أن قلته فى سلك واحد ، وأنظر إليه من وجهة نظر واحدة . وسأراعى أن يكون ما سأذكره خلواً من التفصيلات ، ولكنه أوثق وأكثر توكيداً . وسأرى كل شىء على صورة أقل وضوحاً ، بيد أنى سأميز الحقائق الرئيسية تمييزاً أدق . ألا ترى السائح الذى غادر توا إحدى المدن الكبرى وجعل يصعد فى التل المجاور لها ، لا يستطيع كلما ابتعد عنها ، أن يرى الناس الذين تركهم فيها توا ، ويرى مساكنهم وقد اختلطت عليه حتى بدت له كتلة واحدة ضخمة ، ولم يعد فى استطاعته أن يميز الميادين العامة ، ولا يكاد يرى الطرق الكبرى ؟ ومع ذلك فهو لا يجد أية صعوبة فى تتبع تخوم المدينة ، ويستطيع لأول مرة أن يرى شكلها كلها جملة واحدة . ويخيل إلى أنى أرى مستقبل الجنس البريطانى فى أمريكا الشمالية . فتفصيلات هذه الصور العريضة الهائلة ستبقى غامضة ، ولكن نظرتى ستشمل الكل فى جملته ، وسيتاح أن أكون فكرة جلية عن الموضوع كله .

إن الأراضى التى تملكها الولايات المتحدة الأمريكية الآن ، أو تحتلها تبلغ ٢٠/١[1] من جملة الأراضى القابلة للسكنى فى العالم كله . ومهما كانت هذه الأراضى فسيحة فلا يخطرن بفكر أحد أن الأمريكيين الذين من أصل إنجليزى سيظلون دائماً يعيشون فى نطاق حدودها . والواقع أنهم قد تجاوزوا هذه الحدود بمراحل طوال .

هذا ، وقد أتى على الفرنسيين حين من الدهر كانوا هم أيضاً يستطيعون أن يخلقوا أمة فرنسية عظيمة فى برارى أمريكا ومجاهلها كى يقاوموا بها ما للإنجليز من سلطان على مقدرات تلك الدنيا الجديدة . فقد كانت فرنسا تملك إقليماً واسعاً فى أمريكا الشمالية لا تقل مساحته كثيراً عن مساحة أوربا بأسرها . فكانت أنهار هذه القارة الثلاثة العظمى تجرى فى أملاكها ، وكانت القبائل الهندية التى تقطن بين مصب نهر سنت لورانس ودلتا المسيسبى لم تتعود التخاطب بأية لغة غير اللغة الفرنسية ، وكانت جميع الجاليات الأوربية المبعثرة فى هذا الإقليم المترامى تذكر الناس بما للفرنسيين من تقاليد . فكنت تسمع أسماء مثل لويزبرج Louisburg وممرانسى Montmorency ودوكين Duquesne وسان لوى St. Louis وفانسن Vincennes ونيو أورليانز New Orleans فتلك هى أسماؤهم[2] – وكلها عزيزة على فرنسا وعزيزة على أسماع بنيها ، ومألوفة لهم كل الألفة .

---

(١) لم تعد هذه النسبة كذلك الآن . لتزايد المعمور فى العالم بطبيعة الحال .

(٢) كانت لويزبرج حصن «أكادى» وهى نوفاسكوشيا الحالية إحدى مقاطعات كندا . وكانت ممرانسى فى مستعمرة كويبك . أما دوكين فتقع جنوبى بحيرة أيرى وتقع سان لوى عند ملتقى نهر الميسورى بالمسيسبى . وفانسن بلدة فى ولاية أنديانا على الضفة اليسرى من نهر الويش . ونوفل أورليان (نيو أورليانز) تقع عند مصب نهر المسيسبى وقد أسسها فرنسى سنة ١٧١٨ وصارت بعد خمس سنوات عاصمة لويزيانا .

ولكن ثمة ظروف عدة (إن نحن ذكرناها هنا أثقلنا على القارىء) حرمت الفرنسيين من هذه الميزات الباهرة، فحينما كان المستوطنون الفرنسيون قلة من حيث العدد، ولم ترسخ أقدامهم بعد فى الأراضى، اختفى معظمهم، وتجمع من بقى منهم فى جزء ضيق من البلاد، أصبحوا الآن خاضعين لدولة أخرى غير فرنسا. أما الأربعمائة ألف فرنسى[١] من سكان كندا الجنوبية فهم الآن بقايا أمة قديمة ضاعت فى ثنايا أمة جديدة. لقد زاد عدد السكان الأجانب حولهم باستمرار من كل ناحية وتغلغلوا وسط سادة البلاد السابقين حتى صارت لهم الغلبة فى المدن، وجعلوا يعملون على إفساد لغتهم الفرنسية، فهؤلاء السكان الجدد وسكان الولايات المتحدة شىء واحد الآن. لقد كنت على حق إذن فيما أكدته من قبل بشأن أن الجنس البريطانى ليس مقصوراً على حدود الاتحاد فقد سبق أن انتشر فى الشمال الشرقى منه.

ولا شىء فى الشمال الغربى يقابلنا غير بضع محلات روسية ليست بشىء[٢]، أما فى الجنوب الغربى فالمكسيك تحول دون تقدم الأمريكيين الإنجليز فى اتجاهها، مما ترتب عليه أن صار الإسبانيون والأمريكيون الإنجليز الجنسين المتنافسين اللذين يقتسمان الآن فيما بينهما أراضى الدنيا الجديدة. وقد تعينت الحدود التى تفصل بعضهما عن بعض بمعاهدة. ومع أن شروط هذه المعاهدة جاءت فى مصلحة الأمريكيين الإنجليز فلا يخالجنى شك فى أنهم لايلبثون طويلاً حتى ينقضوها، فثم أقاليم ومديريات مترامیات الأطراف تمتد وراء حدود الاتحاد فى اتجاه المكسيك لاتزال إلى الآن خالية من السكان[٣]، وسيتجه أهالى الولايات المتحدة إلى السكنى فى هذه الأقاليم النائية قبل أن يملأها محتلوها الشيوعيون. فسيستولون على الأراضى الزراعية، ويقيمون مؤسسات اجتماعية، حتى إذا ما جاء الملك الشرعى بأخرى وجد الصحارى والقفار قد زرعت، وقد استقر الأجانب فى هدوء وسط أملاكه وأراضيه.

فأراضى الدنيا الجديدة من حق أول من يحتلها. فهى جزاء طبيعى لأسرع الرواد وأنشطهم. وحتى البلاد التى حفلت بالسكان من قبل قد تجد شيئاً من الصعوبة فى حماية أنفسها من مثل هذا الغزو. وقد سبق أن أشرت إلى ما يجرى الآن فى ولاية تكساس. فإن سكان الولايات المتحدة يهاجرون الآن باستمرار إلى تكساس هذه حيث يشترون فيها أراضى لهم، ومع ذلك يحترمون أحكام قوانين البلاد، إلا أنهم يقيمون فيها تدريجياً سلطان لغتهم ونظم آدابهم فى الأخلاق والسلوك. إن تكساس لاتزال جزءاً من أراضى المكسيك، ولكن سيأتى عليها يوم غريب لاتجد فيها مكسيكياً واحداً. فقد حدث مثل هذا الشىء نفسه كلما اتصل الأمريكيون الإنجليز بشعب من أصل غير أصلهم.

---

(١) أصبح عدد الأربعمائة ألف فرنسى هؤلاء الآن أكثر من ثلاثة ملايين.

(٢) اشترت الولايات المتحدة ألاسكا من روسيا سنة ١٨٦٧.

(٣) هذه الأقاليم هى المكسيك الجديدة ويوتا وأريزونا وكاليفورنيا وقد سلمتها المكسيك إلى الولايات المتحدة بمعاهدة «جودلوب هيدالجو» سنة ١٨٤٨.

لاينكر أحد أن الجنس البريطانى اكتسب نفوذاً عظيماً على سائر الأجناس الأوربية فى الدنيا الجديدة، وإنه ليفوقها بمراحل بعيدة حضارة وصناعة وقوة.. ومادام هذا الجنس لايحيط به سوى المجاهل والأقاليم القليلة السكان، ومادام لايصادف عدداً كبيراً من السكان المتجمعين فى طريقه، حتى لايستطيع أن يشق لنفسه مسلكاً وسطهم - فإنه سيظل من غير شك ينتشر. إن الحدود التى رسمتها المعاهدات لن تقف فى سبيل هذا الجنس، بل سوف تتخطى هذه الحواجز الوهمية فى كل مكان.

ولاشك فى أن موقع الجنس البريطانى الجغرافى فى الدنيا الجديدة ملائم كل الملاءمة لانتشاره السريع. فوراء حدوده الشمالية تمتد الأقاليم القطبية الباردة، وبعد بضع درجات من حدوده الجنوبية، تجد المناخ الاسترالى المحرق. فالأمريكيون الإنجليز يقطنون إذن فى أكثر مناطق القارة اعتدالاً وأصلحها لسكنى البشر.

والمظنون أن زيادة عدد السكان العظيمة التى حدثت فى الولايات المتحدة إنما حدثت بعد إعلان الاستقلال، إلا أن هذا خطأ. فقد كان السكان يزدادون عدداً بالسرعة نفسها فى نظام المستعمرات، كما يزدادون اليوم، أى أن عدد السكان فى الولايات المتحدة قد تضاعف فى اثنتين وعشرين سنة. ولكن هذه النسبة التى تصدق الآن على ملايين من الناس لم تكن تطبق فى ذلك الوقت إلا على الآلاف منهم فحسب. فالحقيقة عينها التى لم يكن يحس بها أحد من قرن مضى أضحت الآن جلية واضحة لكل ذى عينين.

إن عدد الإنجليز فى كندا، وهم يعيشون فى كنف ملك، يزداد وينتشر بنفس السرعة تقريباً التى تزداد بها الجالية البريطانية وتنتشر فى الولايات المتحدة، وهم يعيشون - كما لايخفى - فى ظل حكومة ديمقراطية. ففى أثناء حرب الاستقلال التى ظلت رحاها دائرة ثمانية أعوام[1] ظل السكان يزدادون زيادة متصلة، وبالنسبة عينها. ومع أنه كان ثمة شعوب هندية قوية متحالفة مع الإنجليز فى ذلك الوقت على الحدود الغربية فإن الهجرة فى اتجاه الغرب لم تتعطل بأى حال من الأحوال؛ وبينما كان العدو يخرب شواطىء المحيط الأطلسى فى كنتكى، كانت الأجزاء الغربية فى بنسلفانيا وولايتى فرمنت ومين تزداد امتلاء بالسكان. هذا، وأن حالة الاضطراب العامة التى أعقبت الحرب لم توقف اتجاه السكان عبر المجاهل والبرارى. وهكذا يتبين لنا أن اختلاف القوانين، واختلاف الأحوال من حرب وسلام، ومن نظام وفوضى، لم يكن لها أى تأثير محسوس فى استمرار تقدم الأمريكيين الإنجليز وترقيهم الموصول. وهذا أمر يسهل فهمه. فليس ثمة أسباب عامة عموماً يكفى ليؤثر فى جميع أرجاء إقليم واسع هذه السعة فى وقت واحد. فإن جزءاً من البلاد يكون دائماً ملجأ أميناً من الكوارث التى قد تحل بجزء آخر. ومهما بلغ الشر، فالعلاج الذى فى متناول الأيدى يكون أبلغ منه وأعظم.

---

(١) دارت رحى حرب الاستقلال التى أدت إلى انفصال الولايات المتحدة عن إنجلترا من سنة ١٧٧٥ إلى سنة ١٧٨٣

فلا يتصورن أحد إذن أن الحافز الذى يحرك الجنس البريطانى فى الدنيا الجديدة مما يتسنى وقفه. فتفكك الاتحاد، وما قد ينشأ عنه من العداوات وإلغاء المؤسسات الجمهورية، والحكومة الاستبدادية الظالمة التى ستعقب ذلك التفكك، قد تستطيع أن تعطل هذا الحافز ولكنها لن تستطيع أن تمنع الشعب بحال من الأحوال عن أن يحقق فى النهاية ما هو مقدر له.

فليس ثمة قوة على الأرض تمنع المهاجرين إلى أمريكا من تلك البرارى الخصيبة التى تعد موارد لكل صناعة، والتى تقوم حصناً حريزاً من كل احتياج. وأيًّا كانت الأحداث التى يأتى بها المستقبل، فلن تحرم الأمريكيين مناخهم ولن تنتزع منهم بحارهم الداخلية ولا أنهارهم العظيمة، وتربتهم وأراضيهم الخصيبة. كذلك لن تستطيع القوانين الفاسدة، ولا الثورات والانقلابات، ولا الفوضى نفسها، أن تمحو غرامهم بالرخاء والازدهار من ناحية، ولا ما فيهم من روح المغامرة من ناحية أخرى- وهما الأمران اللذان يبدوان صفتيهم المميزتين لهم، أو أن تزيل عنهم العلوم والمعارف التى تهديهم الطريق.

ففى المستقبل غير المضمون حدث واحد مؤكد، على الأقل. ففى زمن قريب -قريب لأننا نتكلم هنا عن حياة أمة- سينتشر الأمريكيون الإنجليز وحدهم فى تلك البقاع الشاسعة المترامية الأطراف والممتدة من شواطىء المحيط الأطلسى إلى المحيط الهادى. ولعل الجزء الذى سيشغله هؤلاء الأمريكيون الإنجليز سيعادل ثلاثة أرباع أوربا. ذلك إلى أن مناخ أوربا، ومزاياه الطبيعية لا تقل عن مزاياها. فجلى إذن أن عدد سكانها سيتناسب فى المستقبل مع عدد سكان أوربا. ولما كانت أوربا موزعة على أمم كثيرة، وتمزق شملها حروب تكاد لا تنقطع، ونشأت من آداب العصور الوسطى الوحشية، فقد بلغت كثافة السكان فيها ٤١٠ نسمة فى كل فرسخ مربع. فما الذى يمنع الولايات المتحدة من أن يزداد عدد سكانها حتى يبلغ مثل هذه الكثافة على مر الزمن ؟

لابد من مرور عصور عدة قبل أن تتغير الملامح والقسمات التى تميزت بها سلالات الجنس البريطانى وفروعه المختلفة التى فى أمريكا، وتفقد وحدتها. ولا يتسنى لأحد أن يتكهن بالوقت الذى يمكن أن يقوم فيه تفاوت دائم بين سكان الدنيا الجديدة. وأيًّا كانت الفروق، فإنهم كلهم سيحتفظون فى الوقت الحاضر، على الأقل، بأحوال اجتماعية متشابهة، وسيظلون يشتركون فى العادات والآراء التى ترتبت على قيام هذه الأحوال الاجتماعية المتشابهة.

كانت رابطة الدين قوية كل القوة فى العصور الوسطى حتى بلغت بها قوتها أنها جمعت وحدها مختلف سكان أوربا جميعاً فى حضارة واحدة. وثم ألف رابطة أخرى غير الدين تربط الإنجليز الذين يعيشون فى الدنيا الجديدة، فى عصر انتشرت فيه النزعة إلى حب المساواة بين البشر أيما انتشار. لقد كانت العصور الوسطى عهداً انقسم فيه كل شىء.

فكان كل شعب، وكل محافظة وكل مدينة، بل وكل أسرة، تحرص كل الحرص على فرديتها التى تتميز بها. أما فى العصر الحاضر، فإن نزعة أخرى مناقضة لتلك، قد أخذت تسود. فظاهر أن الشعوب قد أصبحت تتجه نحو الوحدة. فوسائل الاتصال الفكرى تربط الآن أقصى أجزاء بعضها ببعض ولم يعد الناس يستطيعون أن يظلوا غرباء عن بعضهم البعض، ولا جاهلين بما يجرى فى أى ركن من أركان المعمورة، مما أدى إلى أن صار الفرق الذى بين الأوربيين الآن وبين سلالاتهم فى الدنيا الجديدة أقل مما كان فى القرن الثالث عشر بين مدن معينة لم يكن يفصل الواحدة منها عن الأخرى سوى نهر واحد ليس إلا. فإن كانت هذه النزعة إلى التماثل قد قربت بين أمم أجنبية بعضها من بعض، فإنها من باب أولى، يجب أن تمنع ذرارى الشعب الواحد من أن يصبحوا أجانب وأغرابا بعضهم عن بعض.

فلابد أن يأتى وقت إذن يستطيع فيه مائة وخمسون مليوناً من البشر أن يعيشوا فى أمريكا الشمالية، متساوين فيما بينهم، وكلهم ينتمى إلى أسرة واحدة، وترجع نشأتهم إلى سبب واحد، ويحافظون جميعاً على حضارة واحدة ولغة واحدة، ودين واحد، وعلى عرف وعادات واحدة، وتنتشر بينهم الآراء على نحو واحد، وتتجلى لهم كذلك فى ألوان واحدة. هذا كله صحيح ولا شك فيه. هذه حقيقة جديدة على العالم، وعبثاً يحاول الخيال أن يتصور مداها، أما باقى الحقائق فموضع شك.

● ● ●

فى العالم الآن أمتان عظيمتان، الروسيون والأمريكيون، بدأتا من نقطتين مختلفتين، ولكن يبدو أنهما تتجهان نحو هدف واحد بعينه. فقد نشأتا كلتاهما فى الخفاء نشأة مرموقة دون أن يفطن إليهما أحد. فبينما كان العالم مشغولاً عنهما بغيرهما من الأمم، إذا بهما تقفزان فجأة إلى الصدارة، وتتبوأ كل منهما مركزها فى الصف الأول من الدول. فكأن العالم قد سمع بميلادهما وبعظمتهما معاً فى وقت واحد.

ويظهر أن سائر الأمم قد وصلت، أو كادت أن تصل، إلى حدودها التى رسمتها لها الطبيعة، ولم يبق لها إلا أن تعمل على صيانتها والمحافظة عليها. أما أمتا الروس والأمريكيين فما زالتا تنموان فعلاً، على حين توقفت الأمم الأخرى عن النمو، أو هى لم تعد تنمو إلا بكل جهد ومشقة. أما هاتان الأمتان فتتقدمان وحدهما فى سهولة وقوة فى طريق لم تستطع الأبصار بعد أن تدرك منتهاها؛ فبينما الأمريكى يجاهد ضد البرارى وضد الهمجية، يناضل الثانى ضد الحضارة، بكل ما لديه من عدة ومن سلاح. ففتوح الأمريكى تتم بواسطة المحراث بينما تتم فتوح الروسى بحد السيف. فالأمريكى يعتمد على رعايته لمصلحته الشخصية فى تحقيق أغراضه، ويدع مكاناً لقوى أفراد الشعب غير الموجهة، ولفطرتهم السليمة. أما الروسى فيركز بشكل ما كل سلطات المجتمع فى يدى شخص واحد. فالأول وسيلته الأساسية فى العمل الحرية، أما الثانى فوسيلته العبودية. لقد بدأ كل منهما من نقطة غير التى بدأ منها الآخر. فسبلهما مختلفة، ومع ذلك يبدو أن العناية الربانية قد شاءت، لأسباب تخفى علينا، أن تضع فى يدى كل منهما مصائر نصف هذا العالم.